الفصل الخامس

الإعجاز العلمي

ضـــوابط ومحـــاذير

أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمدا رسول الله

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾(فُصِّلَتْ: ٥٣).

حقائق الكون
بين العلم الشرعي والعلم التجريبي

إن الاكتشافات لحقائق الخلق لا تأتي إلا بعد دراسة، وبعضها قد يأتي مصادفة؛ كأن يكون البحث في قضية من قضايا الخلق فيظهر أمر آخر لم يكن بحسبان الباحث. ومهما بلغ العلم البشري من تقدم فسيظل عنده قصور في إدراك حقائق الكون؛ فإن جملة من الكون الغائب مما لا يمكن الإنسان الوصول إليه بوسائله البشرية مهما ارتقى بها. وقد يتغير فهْم هذه العلوم، ويترقَّى الإنسان في فهمها جيلًا بعد جيل، فما كان في زمنٍ حقيقةً فقد ينقلب في الزمن الذي بعده إلى أن يكون ضدَّها.

قضايا العلم التجريبي بين الشرع والعلم الحديث:

١- العلم بالسُّنَّة الكونية لا يرتبط بالمعتقد، ولا بالأفكار؛ لأنه نتيجة البحث والتأمل، ومعرفة السُّنَّة الكونية من العلوم التي وكلها الله لعباده، فعلى قدر ما يكون الجهد في البحث يصل البشر بإذن الله إلى نتائجه المرجوّة، ولما كان الوصول إلى هذه العلوم التجريبية مرتبطًا بالقدرة على البحث ووجود المناخ المناسب له، وكان الغرب الكافر قد حرص عليه، فإنهم قد سبقوا المسلمين في ذلك.

٢- إن وجدت إشارةٌ في القرآن أو السُنة الصحيحة لبعض هذه المسائل المرتبطة بالعلوم التجريبية فإنها لم تكن هي المقصد الأول، وإذا وازنْتَ بين المعلومات العقدية والشرعية، ظهر لك أنَّ المعلومات العقدية والشرعية - أي: كيف يعرفون ربهم، وكيف يعبدونه - هي الأصل المراد بالقرآن والسُنة الصحيحة، وهي التي تكفَّل الله ببيانها للناس، أما المعلومات الدنيوية بما فيها العلوم التجريبية فهي موكولة للناس، وإن جاءت فإنها تجيء مرتبطة بالدلالة على حكم عقدي أو شرعي، فهي جاءت تبعًا وليس أصالةً؛ أي: أن القرآن لم يقصد أن يذكرها على أنها حقيقة علمية مجردة، بل ليستدل بها على توحيد الله وأحقيته بالعبادة، أو على حكم تشريعي، أو على إثبات اليوم الآخر.

٣- القضايا العلمية التي يفسر بها من يبحث في الإعجاز أو التفسير العلمي لا يدركها إلا الخواص من الناس، ولا يوصل إليها إلا بالمِراس.

٤- علم البشر قاصر غير شمولي، ونظره من زاوية معينة، لذا قد يغفل عن جوانب في القضية، فيختلَّ بذلك الحكم ونتيجة البحث. وقد يكتشف ما لم يحتسب له عن طريق الصدفة لا الممارسة العملية.

٥- في القرآن والسُّنة الصحيحة طرْحٌ للقضايا العلمية بعيدًا عن الخيالات التي كانت إبان نزوله، سواءً أكانت هذه العلوم عند العرب أم عند غيرهم، وهذه الخيالات بان خطؤُها في القرون المتأخرةِ، ولا يزال هناك غيرها مما سيكشفه العلمُ التجريبي، وكل ذلك مما لا يمكن أن يخالف حقائق القرآن إن صحَّت تلك العلوم.

٦- قد تكون بعض القضايا العلمية صحيحة في ذاتها، لكن الخطأ يقع في الاعتقاد بأن الآية أو الحديث يدلان عليها، وتُفسَّر بهما أو بأحدهما.

٧- الفرق بين القرآن والعلم التجريبي في تقرير القضية العلمية:

- أن قضايا الكون تأتي في القرآن على ما استقرَّت عليه من حيث هي حقيقة كونية.
- أن حديث القرآن عما هو خفِيٌّ عنَّا من قضايا الكون كحديثه عما هو معلوم مُشاهَد كشروق الشمس من مشرقها.
- أن القرآن يقررها حقيقةً حيث كانت وانتهت، والعلم التجريبي يبدأ في البحث عنها من الصفر حتى يصل إلى الحقيقة العلمية.
- القرآن يذكر القضية العلمية مجمَلة غير مفصلة، أما العلم التجريبي فينحو إلى تفصيل المسألة العلمية.

ضوابط شرعية للتعامل مع الآيات الكونية:

للتعامل مع الآيات الكونية ضوابط شرعية يجب الالتزام بها، منها:

١- الإيمان بجميع ما جاء في القرآن والسنة عن الآيات الكونية مما شهدناه أو غاب عنا، وسواء في ذلك ما عقلناه وجهلناه ولم نطلع على حقيقة معناه مما صح به

النقل، وإن خالف نظريات العلم الظنية.

٢- الله ﷻ هو المتفرد بالخلق، والمتصرف في الكون.

٣- هذه الآيات الكونية لا تخرج عن قضاء الله وقدره ولا عن مشيئته وإرادته.

٤- كل ما ورد في النصوص الشرعية من الآيات الكونية فهو لبيان كمال قدرة الله ﷻ وحكمته، وتذكير الناس بنعم الله تعالى عليهم ليشكروه حق شكره، وليعبدوه حق عبادته. فذكْر الآيات الكونية في القرآن في سياق العظة للاعتبار، وفي مورد الإرشاد للاستدلال على قدرة الخالق وحكمته في مخلوقاته، ليوجه الإنسان ببصيرته إلى خالقه، فيسبحه ويمجده ويعبده حق عبادته.

٥- ليس في النصوص الصحيحة ما ينافي العلم الكوني الصحيح، ولا ما يناهض ما أثبته البرهان الساطع، وقام عليه الدليل القاطع، بل إن فيه إشارات تدعمه وتثبت رجحان ما يذهب إليه.

٦- من الآيات الكونية ما لا يمكن العلمُ به إلا عن طريق النصوص الشرعية الثابتة، ولا مجال للاجتهاد فيه لأن الله ﷻ قد استأثر بعلم ذلك، كطلوع الشمس من مغربها آخر الزمان، وأهوال يوم القيامة. ومنها ما يدرَك بالحس والمشاهدة، وهذه لا تحتاج إلى دليل شرعي، مثل أن الشمس مضيئة وذات حرارة. ومنها ما يدرك بالنظر والاستدلال، كمعرفة وقت الكسوف والخسوف.

وعلى هذا فالعلوم الكونية تُبنَى على أصلين، إما نص شرعي تؤخذ منه الدلالة بصريح لفظ أو مفهوم، وإما محسوس تدركه الحواس البشرية وتصدقه النصوص الشرعية لأنها لا تخالفه في منطوق ولا مفهوم. فمرجع القبول لكل العلوم القديمة والحديثة التي تتعلق بالآيات الكونية قائم على إحدى قاعدتين، إما النقل الصحيح أو العقل الصريح، إذ لا تَخالف بينهما.

٧- عدم الخوض في الأمور الغيبية والوقوف مع النصوص الشرعية.

٨ - ما سكتت عنه النصوص الشرعية من ظنيات العلم الكوني، فلا شيء يمنعنا أن نسلم به، حتى يجيء من العلم الكوني ما يناقضه.

٩ - هذه الآيات الكونية لحدوثها أسباب حسية، فنزول المطر سبب لحياة الأرض، وأسباب معنوية، فالاستغفار من أسباب نزول الأمطار قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ (نوح: ١٠ -١٢).

١٠ - ما أوتِيه الإنسان من علم الآيات الكونية فإنه محدود بما أراده الله ﷻ لتقوم الحجة على خلقه بما يُظهِره لهم من الآيات البينات التي تدل على عظمة هذا الكون وعظمة خالقه.

١١- البحوث العلمية الناتجة عن الدراسات لا يلزم مصداقيتها، وهي درجات من حيث المصداقية، لذا قد ترى دراسة علمية تذكر فوائد شيء، وتأتي دراسة تناقضها في هذه الفوائد.

١٢- التثبت من حقائق العلم وعدم إقحامها في غير موضعها في القرآن والسنة، والواجب عند تفسير الآيات الكونية في القرآن أو السنة بالعلم الحديث، أن لا تخالف هذه التفاسير العلمية النصوص الشرعية، ولا تفاسير السلف، مع مراعاة الشروط والضوابط العامة للتفسير.

ما هو
الإعجاز العلمي؟

هو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية الصحيحة بحقيقة أثبتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ كالتعليم والمعرفة المكتسبة بوسائلها المختلفة، وهذا مما يُظهِر صدق الرسول محمد ﷺ فيما أخبر به عن ربه ﷻ.

ويؤكد أن القائل بتلك الحقيقة في شتّى أمور الحياة مُوحَى إليه من الله ﷻ بما تحدث به؛ فيكون ذلك شاهدًا على ألوهية رسالته، وصدْق دعوته، فالإعجاز العلمي من دلائل صِدْق أخبار القرآن والسُّنَّة.

إن قصارى الأمر في مسألة الإعجاز العلمي أنَّ الحقيقة الكونية التي خلقها الله، وافقت الحقيقة القرآنية التي تكلم بها الله ﷻ، وهذا هو الأصل؛ لأنَّ المتكلم عن الحقيقة الكونية المخبر بها هو خالقها، فلا يمكن أن يختلفا البتة.

وكل ما في الأمر أنَّ هذه الحقيقة الكونية كانت غائبة من جهة تفاصيلها عن السابقين، فمنَّ الله على اللاَّحقين بمعرفة هذه التفاصيل، فكشفوا عنها، وأثبتوا حقيقة ما جاء في القرآن من صدق، فكان اكتشاف ذلك من دلائل صدق القرآن الذي أخبر عنها بدقة بالغة، لم تظهر تفاصيلها إلا في هذا العصر الذي نبغ فيه سوق البحث التجريبي الذي صارت دولته إلى الكفار دون المسلمين، فصاروا إذا ما اكتشفوا أمرًا جديدًا عليهم سارع المعتنون بالإعجاز العلمي لإثبات وجوده في نصوص القرآن.

إن لكل رسول معجزة تناسب قومه ومدة رسالته، ولما كان الرسل عليهم السلام قبل نبيّنا محمد ﷺ يبعثون إلى أقوامهم خاصة، ولأزمنة محدودة فقد أيدهم الله ببينات حسية مثل: عصا موسى عليه السلام، وإحياء الموتى بإذن الله على يد عيسى عليه السلام، وتستمر هذه البينات الحسية محتفظة بقوة إقناعها في الزمن المحدد لرسالة كل رسول، فإذا حَرّف الناس دين الله بعث الله رسولًا آخر بالدين الذي يرضاه، وبمعجزة جديدة، وبينة مشاهدة.

ولما ختم الله النبوة بنبيّنا محمد ﷺ ضَمِن له حِفْظ دينه، وأيَّده ببينة كبرى تبقى بين أيدي الناس إلى قيام الساعة، وهي القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾(الأنعام: ١٩). وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾(النساء: ١٦٦).

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (النمل: ٩٣). وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: ٥٣).

إن الإعجاز العلمي يمثل شاهدًا إضافيًا على صدق رسول الله ﷺ، ويستوي في ذلك الحكم إن كان الإعجاز قرآنيًا أم بالسنة، ولكن الادعاء بوجود إعجاز علمي لا يُسَلَّم به إلا بعد ثبوت تحقيق مناطه والذي يتمثل في حقيقتين هما:

أولًا: ثبوت اكتشاف هذه الحقيقة من قِبَل العلماء بشكل مستقر وذلك بعد برهنة المتخصصين في مجالها على ثبوتها[1].

---

(١) إن كثيرًا من المُسَلّمات عند بعض الناس هي محل مراجعة وشد وجذب بين أهل الاختصاص، ومن ذلك أن أحَد الكُتَّاب الأمريكيين رَدّ على بَني قومه بأدِلَّة عقلية واتهمهم بالكذب في دعوى الوصول والهبوط على سطح القمر!!! وذلك من خِلال عِدّة نقاط، منها:

الأولى: لَمَّا نَزَل رائد الفضاء - بِزعمهم - على سَطح القمر كان يمشي على رِجْليه! مع إثباتِهم انعدام الجاذبية فوق سطح القمر! يعني المفترض أن يَكون كالسابِح في الهواء!

الثانية: أنَّ المركبة هبَطَتْ واستقرَّت فوق سطح القمر، مِن غير وُجود جاذبية!

الثالثة: أنَّ رائد الفضاء لمَّا نَزَل - بِزعمهم - على سَطْح القمر كان هناك آلة تصوير صَوَّرَته أثناء نُزولِه مِن المَرْكَبَة! فَمن الذي سبقهم وزرعَ آلةَ التصويرِ تلك لتصوّر رائد الفضاء فور نُزولِه على سطح القمر!

=

الرابعة: أن رائد الفضاء زَرَع علَمًا أمريكيًّا فوق ما زَعموه "سَطح القمر"! فأخَذ العَلَم يُرَفْرِف! مع إثباتِهم أنه لا حياة ولا هواء ولا ماء على سطح القمر! فكيف يُرفرِف العَلَم مع عدم وجود جاذبية!

وبعد إتمام الرحلة وتحديدًا في عام ١٩٧٠ ظهرت العديد من التحليلات العلمية التي تشكك في صحة هذه الرحلة وأن الإنسان بالفعل لم يهبط علي القمر وقتها. وأن الصور والفيديوهات تم إنتاجها في استديوهات أرضية.

نظرية المؤامرة في الصعود للقمر:

مضمون هذه النظرية هو القول بأن بعض أو كل عناصر برنامج "أبوللو" الذى يرتبط بالهبوط على القمر كانت خدعة وقد قامت بها "وكالة ناسا" بالتعاون مع بعض المنظمات الأخرى، وأن سنة الإنزال المأهولة (١٩٦٩-١٩٧٢) كلها مزورة وأن اثني عشر من رواد الفضاء على "أبوللو" لم يسيروا أو يتجولوا في الواقع على القمر. وقد اعتبرت الجماعات المختلفة والأفراد مثل هذه الأمور مؤامرة منذ منتصف ١٩٧٠. وقالوا أن "وكالة ناسا" وغيرها ضللوا الجمهور بالاعتقاد بحدوث الهبوط، من خلال الفبركة، والعبث، أو تدمير الأدلة بما في ذلك الصور، والقياس، والأشرطة والإذاعة والتلفزيون والإرسال، وعينات الصخور القمرية، وحتى بعض الشهود الرئيسيين.

وقد أظهرت استطلاعات الرأي وقتها بأن ٢٠٪ في المائة من الشعب الأمريكي لا زال يؤمن بأن وصول الإنسان إلى القمر أكذوبة كبيرة. بينما وصلت إلى ٢٨٪ عند الشعب الروسي.

وفي عام ٢٠٠١ قامت شركة "فوكس" بانتاج فيلم وثائقي تحت عنوان: "نظرية المؤامرة: هل هبطنا علي القمر فعلا؟" تحدث فيها علماء أمريكيون في مجالات مختلفة كما ضم متحدثًا واحدًا من وكالة ناسا لإضفاء الموضوعية علي الفيلم.

إن بعض العلماء الأمريكيين علي قناعة تامة بأن ما حدث في يوليو عام ١٩٦٩ مجرد فيلم أمريكي باهظ التكاليف تم انتاجه وإخراجه، وكانت "وكالة ناسا" تهدف من ورائه إقناع الاتحاد السوفيتي بتفوق الولايات المتحدة في مجال الفضاء مما يتيح لها التفوق العسكري حال حدوث حرب بين الدولتين.

ورغم كثرة التحليلات بين الطرفين إلا أن بعض الآراء المحايدة رجحت أن (الرحلة أبوللو ١١) قامت بالفعل وعلي متنها رواد فضاء ولكنها لم تستطيع أن تصل إلى القمر لكونه أمرًا يتطلب تقنيات وإمكانيات نادرة تكاد تكون شبه مستحيلة علميًّا. مما دفعها إلى إنتاج فيلم تخيُّلي وصور مصطنعة للرحلة حتي تستطيع تحقيق الريادة في سبق الفضاء مع الاتحاد السوفيتي.

=

وضع بعض المحللين عدة دوافع قوية أجبرت الولايات المتحدة علي اختلاق رحلة الهبوط علي القمر:

١- الصراع التكنولوجي والحرب الباردة:

في ظل الصراع العلمي والتكنولوجي في الحرب الباردة بين القوتين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبعد نجاح الأخيرة في إطلاق أول قمر صناعي وأول إنسان للفضاء كانت الولايات المتحدة تحتاج إلى رد قوي وسريع علي ذلك حتي تتمكن من استعادة هيبتها. وكانت فكرة "هبوط الإنسان علي القمر" تمثل انتصارًا علميًّا ساحقًا علي السوفييت وإنجازًا بشريًّا غير مسبوق. وكان الإنجاز يجب أن يكون فريدًا بحيث يعجز الاتحاد السوفيتي أيضًا عن القيام به.

٢- حرب فيتنام:

كانت للنتائج السيئة في حرب فيتنام تأثير سلبي علي المجتمع الأمريكي، فكان لابد من البحث عن وسيلة لإلهاء الشعب ومنحه إحساسًا بالثقة والنصر. فكانت (رحلة أبوللو ١١) بمثابة طوق النجاة أيضًا للسياسيين في أمريكا وكان لابد من إتمام هذه الرحلة المستحيلة بأي شكل من الأشكال، مما يعطي دافعًا كبيرًا لتزييف هذه الرحلة لتحقيق الهدف المنشود.

٣- المصروفات وميزانية "ناسا":

كانت الميزانية المخصصة لـ "ناسا" ضخمة للغاية وصلت إلى ٣٠ مليار دولار. وكانت التكلفة باهظة للأبحاث والرحلات الفضائية السابقة ولم تستطع "ناسا" تحقيق أي إنجاز معروف وقتها، مما أثار المخاوف لدي العاملين بالوكالة الفضائية "ناسا" من تقليل أو ايقاف الميزانية المخصصة لها مما كان اختلاق أكذوبة (الهبوط علي القمر) خلال (رحلة أبوللو ١١) التالية حتميًّا و ضروريًّا. ويرجح البعض أنه ربما تكون وكالة "ناسا" هي التي قامت بتزييف هذه الحقيقة دون أن يعلم البيت الأبيض ذلك.

أبرز نقاط التشكيك في صحة الرحلة والتي ذكرها العلماء منذ ١٩٧٠ حتى الآن:

١- العلم الأمريكي:

علميا لا توجد رياح علي سطح القمر وكان العلم الأمريكي يرفرف كما ظهر في إحدي الصور.

٢- عدم وجود أي آثار للنجوم في السماء:

حيث إن جميع الصور تُظهر السماء كاحلة بدون أي آثار للنجوم أو لأي أجرام سماوية.

٣- مصدر الإضاءة المجهول:

من المعروف أن أشعة الشمس هي المصدر الوحيد للإضاءة علي سطح القمر. وهذه الأشعة تنعكس بشكل كامل مما يمنع الرؤية في منطقة الظل (مثلما لا يظهر الجزء الآخر من القمر عندما يكون هلال مثلًا) ولكن إحدي الصور أظهرت بعض المعدات وبعض أجزاء جسم أحد الرواد عند صعوده للمركبة. مما يعطي تشكيكا كبيرًا في أن الضوء المستخدم هو ضوء استديوهات وليس علي القمر!

=

ثانيًا: صحة الدلالة على تلك الحقيقة في القرآن الكريم أو نَصٍّ من نصوص السنة المطهرة، وذلك دون تكلف أو اعتساف في الاستدلال. علمًا بأن الرابط الذي

٤- وجود الظلال في اتجاهات مختلفة:

من المفترض على القمر أن مصدر الإضاءة الوحيدة هو الشمس، وبالتالي يجب أن تكون جميع الظلال في اتجاه واحد ومتوازية. ولكن اكتشف العلماء في الصور وجود ظلال للأجسام في اتجاهات مختلفة في نفس اللحظة مما يوحي بوجود أكثر من مصدر للأضاءة.

٥- عدم وجود آثار للمركبات:

أظهرت الصورة الملتقَطَة عدم وجود آثار علي سطح التربة من قوائم المركبات التي هبطت علي سطح القمر أو من المحرك السفلي وكأنَّها لم تتحرك من مكانها بالرغم من أنه المفترض أن هذه المركبة هبطت علي هذه البقعة. يبدو في الصور أن المركبة هبطت علي السطح دون أن تُحدِث أي آثار في التربة. وهو شيء مُريب وغير منطقي!

٦- درجة حراراة القمر: من المعروف علميًّا أن درجة حراراة القمر تصل إلى ١٢٣° نهارًا و (-١٥٣°) ليلًا وهذا يتطلب وجود بذلات ذات مواد وتصميم صعب ويجب توافر أجهزة تبريد وتدفئة خاصة لتخفيف هذه الدرجات العالية وأجهزة لمعالجة فرق الضغط وغيرها وهو ما يتطلب تقينات عالية غير متوفرة في ذلك الوقت.

٧- فقر الامكانيات التكنولوجية:

يعتقد هؤلاء العلماء أن الإمكانيات التقنية الموجودة وقتها لم تكن تسمح بالوصول إلى القمر **بدليل عجز "ناسا" عن تكرار الحدث بعد أكثر من أربعين عامًا** بالرغم من التطورات الهائلة في مجال التكنولوجيا.

٨- عدم الضرر أو حدوث أي إصابة أو تلوث:

كان هؤلاء العلماء ومعهم عالم فضاء سوفيتي أقروا بوجود طبقة من موجات "حزام فان آلن" الإشعاعي إضافة إلى طبقة سميكة من الإشعاع الذري حول القمر مما يجعل اختراق الإنسان لهذه الطبقة دون الإصابة بالسرطان أو تقرحات جلدية أمرا مستحيلًا. ورواد الفضاء لأبوللو ١١ لم يُصَب أحدهم بأي أذي.

٩- المنطقة المجهولة:

يعتقد هؤلاء العلماء أن مسرح هذه العملية من أولها لآخرها كانت في صحراء "نيڤادا"، في منطقة عسكرية حساسة تسمى المنطقة ٥١، حتي تاريخ اليوم يتم منع وتصفية أي شخص يقترب من هذا المكان. ورجح البعض أن طبيعة المكان تكاد تكون مشابهة لما جاء بالصور.

(انظر: نظرية المؤامرة في الصعود للقمر، من موقع "ويكيبيديا"، الموسوعة الحرة).

يعطي هذا المناط قيمته هو عدم إمكان إحاطة البشر بتلك الحقيقة وقت التنزيل؛ ولذلك فإن خطوات إثبات شاهد من شواهد الإعجاز العلمي خمسة وهي:

١- إثبات وجود دلالة في النص على الحقيقة الكونية المراد إثبات وجود إعجاز علمي بصددها.

٢- ثبوت تلك الحقيقة الكونية علميًا بعد توافر الأدلة التي تحقق سلامة البرهنة عليها.

٣- ثبوت استحالة معرفة البشر بتلك الحقيقة الكونية وقت تنزيل القرآن على نبينا محمد ﷺ والتي اكتشفت لاحقًا في الأزمنة المتأخرة.

٤- تحقُّق المطابقة بين دلالة النص من كتاب الله ﷻ أو من سنة رسوله ﷺ وبين تلك الحقيقة الكونية.

٥- ثبوت أن النَّص من السنة المطهرة الذي نستنبط منه الإعجاز العلمي المشار إليه، هو صحيح أو حسن، إذ لا يُعتمَد في هذا المجال الأحاديث الضعيفة.

إن من يبحث في هذا الميدان يعالج ما يُسمى: استنباطًا من النص. وهذا يملي عليه التزام منهج علماء الأمة في تفسير القرآن الكريم والسُّنّة الصحيحة، فينبغي أن نتنبه في سياق الكلام عن "الإعجاز العلمي" إلى أمور منهجية مهمة:

١- القرآن الكريم كتاب هداية، احتوى على ما يُصلح حال الفرد، والأسرة، والمجتمع، والدولة، وهو ليس كتاب " كيمياء "، أو " جيولوجيا "، أو " طب "، وما فيه من إشارات لعلوم الطبيعة لا ننكرها، لكن لا نعطيها أكبر من حجمها. وإعجاز القرآن في أصله هو إعجاز لغوي، بياني، ومن هنا فقد تحداهم النبي ﷺ بالإتيان بمثله، فعجزوا، مع أنهم أهل فصاحة، وبيان.

٢- إن الأصل أن تتفق الحقيقة الكونية مع النص القرآني لأن مصدرهما واحد، ولا يقع الاختلاف إلا في نظر الناظر، فقد يكون النقص في علمه، إما من جهة الحقيقة الكونية وإما من جهة الحقيقة القرآنية، وفي كلا الحالين لا يمس هذا النقص قدسية القرآن؛ لأن التفسير شيء، وثبوت النص القرآني كلامًا لله شيء آخر.

٣- ينبغي التفريق بين "النظريات" و"الحقائق" في هذا الباب، فكثيرًا ما يُخلط بينهما، فتُجعل النظريات حقائق ثابتة، فيحمل المتحمسون آياتِ القرآن عليها، ثم سرعان ما تُنقض بنظرية أخرى! فيقع في قلب المسلم من الشك والريب ما يكون سببه جَهْل من تكلم في هذا العلم، وخلَط بين الأمور.

كما أنه توجد حقائق لا شك فيها، لكن ليس من اللازم أن يكون في القرآن حديث عنها بنفسها، ويأتي بعض المتحمسين ليتكلف حمل نصوص من القرآن أو السنة عليها، وقد نهينا عن التكلف.

٤- لا شكَّ أن الدعوة بالإعجاز العلمي هي أحد طرق الدعوة، وليس هو طريقها الوحيد في هذا العصر، والرجوع إلى كتاب ربنا والعمل بما فيه من الآيات التي تدعونا إلى عمارة الأرض والجد والاجتهاد فيما يعود على الإنسان وأمته والناس بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة هو الطريق الأمثل في إنقاذ هذه الأمة من تخلفها وعجزها.

فإن طلب قيادة البشرية لا يكفي فيه العلم وحده، بل لا بد له من قوة تحميه، فإذا وُجِد العلم ولم توجد له قوة تحميه فإنه يهاجر إلى هذه القوة؛ كما هو الحال في هجرة كثير من علماء المسلمين وغيرهم إلى الدول التي تحميهم في كل المجالات.

٥- للأخذ بما يقوله بعض العلماء المعاصرين بما تدل عليه بعض الآيات القرآنية من أوجه الإعجاز العلمي ينبغي مراعاة أمور:

- عدم الجزم بالنظريات العلمية على أنها حقائق علمية لا تقبل المناقشة.
- عدم الجزم بأن ما يقولونه هو تفسير للآية القرآنية، ولا هو بالمرجح بين الأقوال المختلفة فيها.
- يجب مطابقة المعنى المذكور للغة العربية؛ لأنها لغة القرآن.
- أن يكون المتكلم في دلالة الآية من أصحاب العلم الشرعي.
- أن لا يخالف المعنى المذكور آية، أو حديثًا صحيحًا، أو إجماعًا.
- الابتعاد عن التكلُّف والتمحُّل (أي سلوك طرقًا ملتوية) في الاستنباط من الآية القرآنية.

الإعجاز العلمي
بين المجيزين والمانعين

ينقسم العلماء في هذا الموضوع إلى فريقين:

فريق: يجيزه ويدعو اليه ويرى فيه فتحًا جديدًا وتجديدًا في طريق الدعوة إلى الله وهداية الناس إلى دين الله ﷻ.

وفريق: يرى في هذا اللون من التفسير خروجًا بالقرآن عن الهدف الذي أُنزِل من أجله، وإقحامًا له في مجال متروك للعقل البشرى يجرب فيه ويصيب ويخطئ.

أما مجيزوا التفسير العلمي فيضعون له الحدود التي تسد الباب أمام الأدعياء الذين يتشبعون بما لم يعطوا. ومن هذه الحدود:

١ – ضرورة التقيد بما تدل عليه اللغة العربية فلابد من:

- أن تراعى معاني المفردات كما كانت في اللغة إبان نزول الوحي.
- أن تراعى القواعد النحوية ودلالاتها.
- أن تراعى القواعد البلاغية ودلالاتها. خصوصًا قاعدة أن لا يخرج اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية.

٢– البعد عن التأويل في بيان إعجاز القرآن العلمي.

٣– أن لا تُجْعَل حقائق القرآن موضع نظر، بل تجعل هي الأصل: فما وافقها قُبِل وما عارضها رفض.

٤– أن لا يفسّر القرآن إلا باليقين الثابت من العلم لا بالفروض والنظريات التي لا تزال موضع فحص وتمحيص، أما الحدسيات والظنيات فلا يجوز أن يفسر بها القرآن، لأنها عرضة للتصحيح والتعديل أوالإبطال في أي وقت.

أما المانعون من التفسير العلمي فيقولون:

١ – إن القرآن كتاب هداية، وإن الله لم ينزله ليكون كتابًا يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم، ودقائق الفنون، وأنواع المعارف.

٢- إن التفسير العلمي للقرآن يعَرِّض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير.

٣- إن التفسير العلمي للقرآن يحمل أصحابه والمغرمين به على التأويل المتكلف الذي يتنافى مع الإعجاز، ولا يسيغه الذوق السليم.

ولكن هل تكفى هذه الحجج لرفض التفسير العلمي؟

١- إن كَون القرآن الكريم كتاب هداية لا يمنع أن تَرِدَ فيه إشارات علمية يوضحها التعمق في العلم الحديث، فقد تحدث القرآن عن السماء والأرض، والشمس، والقمر، والليل والنهار، وسائر الظواهر الكونية، كما تحدث عن الإنسان، والحيوان والنبات. ولم يكن هذا الحديث المستفيض منافيًا لكون القرآن كتاب هداية، بل كان حديثه هذا أحد الطرق التي سلكها لهداية الناس.

٢- أما تعليق الحقائق التي يذكرها القرآن بالفروض العلمية فهو أمر مرفوض وأولُ مَن رفَضه هم المتحمسون للتفسير العلمي للقرآن.

٣- أما أن هذا اللون من التفسير يتضمن التأويل المستمر، والتمحل، والتكلف فإن التأويل بلا داع مرفوض. وقد اشترط القائلون بالتفسير العلمي للقرآن شروطًا من بينها أن لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن الواضحة التي تمنع من إرادة الحقيقة.

والخلاصة: إن التفسير العلمي للقرآن:

- مرفوض إذا اعتمد على النظريات العلمية التي لم تثبت ولم تستقر ولم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية.
- ومرفوض إذا خرج بالقرآن عن لغته العربية.
- ومرفوض إذا صدر عن خلفية تعتمد العلم أصلًا وتجعل القرآن تابعًا.
- وهو مرفوض إذا خالف ما دل عليه القرآن في موضع أخر أو دل عليه صحيح السنة.

والتفسير العلمي للقرآن مقبول بعد ذلك:

- إذا التزم القواعد المعروفة في أصول التفسير من الالتزام بما تفرضه حدود اللغة، وحدود الشريعة والتحري والاحتياط الذي يلزم كل ناظر في كتاب الله ﷻ.
- وهو مقبول ممن رزقه الله علمًا بالقرآن وعلمًا بالسنن الكونية لا من كل مَن هب ودب فكتاب الله أعظم من ذلك.

هل نحن بحاجة إلى الإعجاز العلمي؟

إن نتيجة ما يتوصل إليه الباحث في الإعجاز العلمي هي إثبات أن الحقيقة أو النظرية الكونية أو التجريبية قد ورد ذكرها في القرآن صراحة أو إشارة، وهذا فيه دليل على صدق القرآن وأنه من عند الله. وهذه النتيجة لا يمكن الوصول إليها إلا بعد البحث المجرد في الحقائق الكونية والمواد التجريبية، ولا شكَّ أن الباحث إذا كان ممن يؤمن بالله ورسوله ﷺ فإنه لن يأتي بشيء مخالف لما في القرآن والسُّنَّة، أما إذا كان الباحث كافرًا فقد يقع منه مخالفات للشرع، ويكون ذلك دليلًا على خطئه في مسار بحثه.

ومن ثمَّ فإنَّ عندنا أمرَيْن:

الأول: العناية بالبحث التجريبي والنظر في هذا الكون والتدبر فيه لننافس بذلك أعداء الله الذين تقدموا علينا في هذا المجال.

الثاني: العناية بما يسمى بالإعجاز العلمي لإثبات صحة هذا الدين لأولئك الذين لا يؤمنون إلا بالحقائق المادية، ودعوتهم إلى الإسلام،

وذلك أنه لما كان هذا العصر عصر ثورة العلوم التجريبية الدنيوية، فإنَّ تقديم هذه التفسيرات الموافقة لما ثبت في هذه العلوم للناس دعوة لهم لهذا الدين الحقِّ. والدعوة بهذه القضايا - إن ثبتت ثبوتًا يقينيًا - حقٌّ لكن الأمر يحتاج إلى ضبط مدى الحاجة للدعوة بهذه التفسيرات العلمية للقرآن، وهل أثبتت نجاحها وتميُّزها؟ إنَّ الذي يُخشى منه أن تكون الدعوة بهذه التفسيرات الموافقة للعلوم التجريبية قد

أخذت أكبر من حجمها، وأنَّ عدد المتأثرين بها قليلٌ لا يكاد أن يوازوا بعددهم ما يقوم به داعية أو مركز إسلامي يبيِّن للناس هذا الدين الحقَّ.

ومن المعلوم أن الأفواج الكثيرة التي دخلت في الإسلام أسلمت بأبسط من هذا الطرح العلمي، فأغلبهم أسلم لما يجد في الإسلام من موافقته لفطرته التي فطره الله عليها دون أن يصل إلى الإيمان بالله بهذا العلم الذي لا يدركه إلا القليل من الناس.

إننا نفرح بإسلام علماء وباحثين من الغرب والشرق، لكننا بحاجة إلى التنبُّه لأمور؛ منها:

١ - أن مثل هؤلاء يحتاجون إلى تعزيز الإيمان في قلوبهم، ومتابعة أحوالهم بعد إسلامهم، والحرص على تثقيفهم في دينهم الجديد؛ لأن المقصود من الدعوة إلى الله تعبيد الناس لله، وليس مجرد إقناعهم بأن الإسلام دين حق.

٢ - أن هؤلاء قد يحارَبون من أقوامهم ويُسَفَّهون، وهم بحاجة إلى رعاية خاصة، فينبغي أن يعتني بعض الدعاة بشؤونهم ويتابعوا أحوالهم.

أوجه الإعجاز العلمي في القرآن والسنة:

١- التوافق الدقيق بين ما في نصوص الكتاب والسنة، وبين ما كشفه علماء الكون من حقائق كونية، وأسرار علمية، لم يكن في إمكان بشر أن يعرفها وقت نزول القرآن. ومن ذلك ما كشفه البروفسور "كيث ل. مور" وهو من أشهر علماء العالم في علم الأجنة وكتابه في علم الأجنة مرجع عالمى مترجم إلى سبع لغات منها الروسية واليابانية والصينية والذي جاء بعد اقتناعه بأبحاث الإعجاز العلمي ألقى محاضرة في ثلاث كليات طبية بالمملكة العربية السعودية عام (١٤٠٤هـ) بعنوان (مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة).

٢- تصحيح الكتاب والسنة لما شاع بين البشرية، في أجيالها المختلفة، من أفكار باطلة، حول أسرار الخلق لا يكون إلا بعلم من أحاط بكل شيء علما. ومن ذلك ما كان شائعًا بين علماء التشريح من أن الولد يتكون من دم الحيض واستمر ذلك

الاعتقاد إلى أن اكتشف المجهر في القرن السادس عشر الميلادي بينما نصوص القرآن والسنة تقرر أن الولد يتكون من المنى.

وقد رد علماء المسلمين من أمثال الإمام ابن القيم والإمام ابن حجر وغيرهما أقوال علماء التشريح في عصورهم بنصوص الوحي وذلك مثل ما قاله ابن حجر: «وَزَعَمَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ التَّشْرِيحِ أَنَّ مَنِيَّ الرَّجُلِ لَا أَثَرَ لَهُ فِي الْوَلَدِ إِلَّا فِي عَقْدِهِ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَتَكَوَّنُ مِنْ دَمِ الْحَيْضِ وَأَحَادِيثُ الْبَابِ تُبْطِلُ ذَلِكَ» (١).

٣- إذا جمعْتَ نصوص الكتاب، والسنة الصحيحة، وجدتَ بعضها يكمل بعضها الآخر، فتتجلى بها الحقيقة، مع أن هذه النصوص قد نزلت مفرقة في الزمن، وفي مواضعها من الكتاب الكريم، وهذا لا يكون إلا من عند الله ﷻ؛ الذي يعلم السر في السماوات والأرض.

٤- سَنّ التشريعات الحكيمة، التي قد تخفى حكمتها على الناس، وقت نزول القرآن، وتكشفها أبحاث العلماء في شتى المجالات. مثل ما كشفه العلم حديثًا من الحكمة في تحريم أكل لحم الخنزير والاعتزال المقصور على الجماع في المحيض.

٥- في عدم الصدام بين نصوص الوحي القاطعة؛ التي تصف الكون وأسراره، على كثرتها، وبين الحقائق العلمية المُكتشَفة على وفرتها، مع وجود الصدام الكثير بين ما يقوله علماء الكون من نظريات تتبدل مع تقدم الاكتشافات ووجود الصدام بين العلم وبين ما قررته سائر الأديان المحرفة والمبدلة.

بعض ثمرات البحوث في ميدان الإعجاز العلمي في القرآن والسنة الصحيحة:

١- امتداد بيِّنة الرسالة في عصر الكشوف العلمية: فإذا كان المعاصرون لرسول الله ﷺ قد شاهدوا بأعينهم كثيرًا من المعجزات، فإن في الإعجاز العلمي معجزة

---

(١) فتح الباري (١١/ ٤٨٠).

لرسوله ﷺ لأهل هذا العصر تتناسب مع عصرهم، ويتبين لهم بها أن القرآن حق، وأهل عصرنا، على اختلاف أجناسهم وأديانهم، لا يذعنون لشيء مثل إذعانهم للعلم.

٢- الأثر البالغ الذي تتركه في قلوب المسلمين، والذي يترجم بزيادة اليقين عندهم لدى رؤيتهم هذه الحقائق الباهرة؛ لأنها وردت على لسان النبي الأمي محمد بن عبد الله ﷺ، وهكذا فإنها خير محرض للتمسك بالقرآن والسنة والاهتداء بهما وتقوية إيمان المؤمنين، ودفع الفتن التي ألبسها الإلحاد ثوب العلم عن بلاد المسلمين.

٣- الرد العلمي الدامغ على الأفكار التشكيكية في صحة الرسالة المحمدية؛ حيث إن عرض تلك الحقائق التي أخبر عنها نبي أمي في زمن ليس فيه تقدم علمي، كما أنه ليس في المجتمع وكذا البيئة التي عاش فيها أية أثارة من علم في تلك الميادين الكونية. ولذلك فهذا الإعجاز يعدّ مجالًا خصبًا لإقناع المنصفين من العلماء بأن القرآن الكريم كلام الله حقًا، أنزله على رسوله ﷺ وحيًا، وإقناعهم أيضًا بصدق نبيه ﷺ فيما جاء به.

٤- الرد العملي المقترن بالبرهان الساطع على أن الدين الإسلامي هو دين العلم حقًا؛ فمع إشادة الرسول ﷺ بالعلم وترغيبه في تحصيله وتنويهه بفضل العلماء قد ذكر كثيرًا من الحقائق العلمية وأشار إلى كثير من الأسرار الكونية مما هو موضوع العديد من التخصصات في آفاق الكون، ولم يستطع أحد إلى الآن أن يثبت وجود تعارض أيِّ دلالة كونية واردة في آية قرآنية أو حديث شريف صحيح مع ما استقر من الحقائق العلمية اليوم وأنَّى له ذلك!!.

٥- تنشيط المسلمين للاكتشافات الكونية، بدوافع إيمانية وتحفيزهم للأخذ بأسباب النهضة العلمية: إن الإعجاز العلمي يُعدّ خير محرض لهِمَم المسلمين كي يتابعوا مسيرة البحث والتجريب والمقارنة وغير ذلك من وسائل الكشوف العلمية والتقدم المعرفي.

إن التفكُّر في مخلوقات الله عبادة، والتفكر في معاني الآيات والأحاديث عبادة، وتقديمها للناس دعوة إلى الله ﷻ. وهذا كله متحقق في أبحاث الإعجاز العلمي في

القرآن والسنة وهذا من شأنه أن يحفز المسلمين على اكتشاف أسرار الكون بدوافع إيمانية تعبر بهم فترة التخلف التي عاشُوها فترة من الزمن في هذه المجالات.

٦- إن هذا الإعجاز العلمي يعدُّ قناة من قنوات الدعوة إلى الله ﷻ. والذي يتتبع أسباب دخول كثير من الناس في الإسلام - ممن كانوا نصارى أو بوذيين أو يهود - يجد بحق أن فريقًا منهم قد ابتدأ سيره إلى الحق؛ وانتهى به لإعلان شهادة الحق؛ من خلال معاينة لطائف الإعجاز العلمي.

إن ظاهرة الرجوع إلى دين الإسلام مِن قِبَل الذين كانوا قديمًا من الشاردين الغافلين، وهكذا إسلام غير المسلمين؛ قد أثمر مع ازدياد يقين المسلمين بدينهم رجوعًا لحالة العزة في نفوس أبناء الأمة الإسلامية بعد الكبوة التي حصلت لهم عقب سقوط الخلافة الإسلامية وهيمنة الدوائر الاستعمارية عليهم.

٧- تصحيح مسار العلم التجريبي: لقد جعل الله النظر في المخلوقات، الذي تقوم عليه العلوم التجريبية طريقًا إلى الإيمان به، وطريقًا إلى الإيمان برسوله ﷺ ولكن أهل الأديان المحرَّفة كذّبوا حقائقه، وسفهوا طرقه، واضطهدوا دعاته، فواجههم حمَلة هذه العلوم التجريبية، بإعلان الحرب على تلك الأديان، فكشفوا ما فيها من أباطيل، وأصبحت البشرية في متاهة، تبحث عن الدين الحق، الذي يدعو إلى العلم، والعلم يدعو إليه.

إن بإمكان المسلمين أن يتقدموا لتصحيح مسار العلم في العالم، ووضعه في مكانه الصحيح، طريقًا إلى الإيمان بالله ورسوله، ومصدقًا بما في القرآن، ودليلًا على الإسلام.

وقد ازداد اهتمام المسلمين بالإعجاز العلمي في هذا العصر حتى وصل الأمر إلى إنشاء جمعيات ومؤسسات في الدول الإسلامية والغربية تعنى بذلك، على رأسها "الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة"، والتابعة لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، تلك الهيئة قد حددت أهداف نشاطها فيما يلي:

أولا: وضْع القواعد والمناهج، وطرق البحث العلمي التي تضبط الاجتهادات في بيان الإعجاز العلمي للقرآن والسنة.

ثانيا: إعداد جيل من العلماء والباحثين لدراسة المسائل العلمية والحقائق الكونية في ضوء ما جاء في القرآن والسنة.

ثالثا: صبْغ العلوم الكونية بالصبغ الإيمانية، وإدخال مضامين الأبحاث المعتمدة في مناهج التعليم في شتى مؤسساته ومراحله.

رابعا: الكشف عن دقائق معاني الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث الشريفة المتعلقة بالعلوم الكونية في ضوء الكشوف العلمية الحديثة، ووجوه الدلالة اللغوية، ومقاصد الشريعة الإسلامية دون تكاليف.

خامسا: إمداد الدعاة والإعلاميين في العالم: أفرادًا ومؤسسات بالأبحاث المعتمدة للانتفاع بها، كلُ في مجاله.

سادسا: نشر هذه الأبحاث بين الناس بصورة متناسبة مع مستوياتهم العلمية والثقافية، وترجمة ذلك إلى لغات المسلمين المشهورة، واللغات الحية في العالم.

ضوابط منهجية
للباحثين في الإعجــاز العلمي

إن المنهجية في بحوث الإعجاز العلمي تعني الالتزام بكل ما تقتضيه المنهجية العلمية المطلقة مع ما تستلزمه منهجية العلوم الخاصة والميزات الإضافية التي تستلزمها خصوصيات استنباط لطائف الإعجاز العلمي.

والمراد بهذه الضوابط تلك القواعد التي تحدد مسار بحوث الإعجاز العلمي وفق الأصول الشرعية المقررة، مع الالتزام بالجوانب الفنية والعلمية المطلوبة، فكتابة البحوث في مجال الإعجاز العلمي تحتاج لخبرة وتمرُّس مِن قِبَل الباحث الذي يريد تحقيق ذلك على الوجه الصحيح.

وهذه الخبرة وذلك التمرس يعتمدان أساسًا على تحصيل كفاية من العلم في تفسير القرآن الكريم وعلوم الشريعة، ووجود قاعدة راسخة من التمكن في العلوم الكونية؛ وبذلك يكون الباحث مؤهّلًا لمعالجة قضية في مجال الإعجاز العلمي، ولكن إذا أراد كتابة بحث مفهوم في هذا الميدان ومقبول عند أهل العلم فإنه لابد أن يستجمع معرفة في مجال المنهجية البحثية وبالتالي الإحاطة بالأصول المنهجية لكتابة البحوث.

وتكمن أهمية هذه الضوابط في كونها مناط استرشاد للباحثين في الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، وخصوصًا في هذا الوقت الذي كثر فيه إقبال الباحثين والكاتبين على هذا الموضوع لأهميته في الدعوة والإقناع، وذلك لتميز هذا العصر بالعلم ومكتشفاته، حتى أصبح العلم سمة من سماته.

وهذا الاهتمام من غير سير على ضوابط واضحة أوجد مزالق كثيرة حتى عند بعض المخلصين، وإسهامًا في علاج ذلك جاءت هذه الضوابط علها أن تكون مانعًا من الوقوع في تلك الأخطاء، وحافزًا للكتابة في هذا الموضوع الحيوي.

والتزام هذه الضوابط يساعد كذلك على إنهاء الخلاف الفكري بين المؤيدين لموضوع التفسير العلمي والمعارضين له؛ لأن جوهر الخلاف بينهم يرجع سببه إلى تلك

المظاهر الارتجالية التي لا يصدر أصحابها عن منهج صحيح.

وتلك الضوابط هي:

١- ثبوت النص وصحته إن كان حديثًا، لتواتر القرآن دون الحديث.

٢- ثبوت الحقيقة العلمية ثبوتًا قاطعًا، وتوثيق ذلك علميًّا متجاوزة مرحلة الفرض والنظرية إلى القانون العلمي. إن من أهم الضوابط أن يقتصر الإعجاز على الحقائق العلمية التي وصلت إلى حد القطع بها، بخلاف ما دون الحقائق من النظريات أو حتى ما قد يعتبره البعض حقيقة علمية ويخالفه آخرون؛ ذلك أن إقحام ما عدا الحقائق القطعية في الإعجاز مخاطرة ومجازفة تنقلب على تصديق الوحي بالتشكيك فيه، وعلى الإعجاز بالاستهانة به وسَلْبه رُوح الإعجاز والتحدي.

فلا حاجة إلى التسرع في الاكتشافات العلمية لربطها بنصوص الوحي قبل أن تستقر في تلك الاكتشافات وتكتسب مصطلح الحقيقة العلمية. ولدينا بعض الأمثلة لما أطلق عليه حقيقة ليثبت خلافها، أو - على أقل الأحوال - ظهرت أصوات تشكك في تلك الحقيقة.

٣- وجود الإشارة إلى الحقيقة العلمية في النص القرآني أو الحديثي بشكل واضح لا مرية فيه. فيكون وجه الإعجاز واضحًا وليست مجرد إشارة بعيدة، حيث يلاحظ من بعض الكتّاب في هذا المجال أنه يورد النص المشتمل على لفظة (كالشهب، مثلًا) ثم يسترسل في التفاصيل العلمية للشهب دون أن يكون هناك علاقة واضحة بين النص وبين هذه التفاصيل إلا مجرد ورودها في النص، وهذا ليس من منهج الإعجاز العلمي الذي يُقصَد به أن النص من القرآن أو السنة قد ذكر أمرًا لم يكتشف إلا فيما بعد.

فإن أريد مجرد التفكر مثلًا في خلق الله وفي الكون فلا مانع، لكن ليس على وجه الإعجاز أو الاستدلال بالنص على التفاصيل المذكورة.

4- ألا يكون التفسير العلمي أو الوجه من أوجه الإعجاز العلمي مجزومًا به عند تفسير الآية أو الحديث، بل ينبغي أن يساق على أنه قول في تفسير الآية أو شرح الحديث. فإن مما يلاحظ أن بعض من يذهب إلى التفسير العلمي للآيات أو الأحاديث

يقطع بذلك، وقد يسوق أقوال المتقدمين في تفسيرها ثم يجعل التفسير العلمي هو القاطع لتلك الأقوال، والمرجِّح لواحد منها.

وهذا يقال مع ملاحظة ما تقدم من كوْن النظرية العلمية أصبحت حقيقة علمية، وذلك لا يبرر القطع بتفسير الآية أو الحديث بتلك الحقيقة لما يلي:

- أن الحقيقة العلمية قد لا تكتسب الإجماع من أهل الاختصاص بكونها حقيقة، بل وربما اشتهر كونها حقيقة وذهب إليه الكثيرون، ولكن يبقى ثَمَّ خلافٌ في وصْفها بذلك، وحينئذ فيبقى احتمال تغيُّرها، وإذا تغيرت وقد فسر النص بها قبل التغير أنتج ذلك زعزعة النص عن دلالته وإعجازه والشك فيه.
- أن الحقيقة العلمية مهما كانت قطعيتها فهي قابلة للتطور، وقد لوحظ ذلك في تاريخ العلوم، فنظرية (أينشتاين) في الجاذبية ربما كانت في زمنها وإلى حين تعديلها تعتبر حقيقة قطعية، حتى جاء العالم البلجيكي (لومتر) فأجرى عليها التعديل المعروف.
- أن وصف الشيء بأنه حقيقة يمكن القول بأنه وصف نسبي قد لا يعني القطع بكل حال، ولدى كل من أطلق هذا المصطلح على نظرية ما، ومهما يكن فهي حقيقة ترجع إلى علم البشر القاصر.
- أن القطع في هذا الأمر لا حاجة له، إذ يكفي إيراد احتماله للإعجاز، فكما أن الوجه من أوجه الإعجاز البلاغي لا يمكن القطع به لاحتمال إرادة ما هو أبلغ منه مما يخفى على المفسر، فكذلك الأمر هنا.

٥- من الضوابط ألا يقتضي التفسير العلمي للآية نقض ما جاء عن السلف فيها، فإن كانوا قد أجمعوا على معنى فلا يكون مستلزمًا نقضه، وإن اختلفوا فلا يكون أيضًا مستلزمًا لنقض جميع ما ورد عنهم، بخلاف ما لو وافق البعض واستلزم نقض البعض الآخر، فذلك لا يمنع التفسير به.

٦- ألا ينطلق التفسير العلمي التجريبي من منطلق الانبهار بالحضارة والمكتشفات المعاصرة، ومن ثم التسليم المطلق بها لما له من الأثر على التعسف في حمل النص على وجوه بعيدة، كما ينعكس ذلك على الصياغة التي يساق بها هذا التفسير من حيث يشعر القارئ له بالهرولة بالنص وراء ما اكتشفه المعاصرون.

٧- ألا يعارض اللغة وقواعد النحو.

٨- ألا يكون مستلزمًا لمخالفة البلاغة القرآنية.

٩- ألا يترتب عليه تحويل الاستشعار التعبدي إلى تمسك بالمادي، أو بمعنى آخر كتحويل العبادة إلى عادة أو استفادة مادية. مثال ذلك: التفصيل في فوائد الصلاة المادية (سواء كانت فوائد صحية أو غيرها).

١٠- عدم الخوض وعدم البحث في الأمور الغيبية، كموعد قيام الساعة، وبداية الخلق، والجنة والنار، فالنظريات التي تتحدث عن نهاية الكون - مع كونها لا تصل إلى الحقائق ولا يمكن ذلك لأنه أمر مستقبلي - لا يمكن بأي حال القطع به من جهة العلم التجريبي، مع هذا وحتى على فرض كونها حقائق فلا ينبغي تفسير القيامة بها لأمور من أهمها:

- أنه تفسير لأمر غيبي مستقبل من علم الله ﷻ.
- أن فيه إشارة لتحديد يوم القيامة ما دام ذلك في حدود علم الفلك الذي يخضع للحسابات الدقيقة، فإذا فسَّرْنا القيامة بنظريات نهاية الكون - فإن تلك النظريات لا شك أنها ضمن نمط النظريات الفلكية الأخرى التي تخضع للحسابات الفلكية، وحتى لو لم تذكر تلك الحسابات الآن فإن تفسير القيامة بنظرية فلكية معناه أن بإمكان البشر حساب ذلك ولو بعد حين، وهذا مُنافٍ تمامًا للآيات والأحاديث القاطعة بخفاء علم الساعة على البشر. والآيات والأحاديث في هذا كثيرة معلومة.

- أن تفسير القيامة بتلك النظريات يسلب من القلوب والنفوس هيبة القيامة، وأنها أمر عظيم يُفجأ العالم كله، ويصير شأنها أمرًا معتادًا كالليل والنهار أو كالكسوف والخسوف على أحسن الأحوال.

١٢- عدم الخوض فيما يتعلق بصفات الله تعالى، مما قد يفهم منه نوع من التأويل، كمثل من فسَّر الكرسي والعرش ببعض الأجرام السماوية، ونحو ذلك.

١٣- من ضوابط الإعجاز - أيضًا - عدم التأويل المتكلف، وأن الأصل ظاهر اللفظ ولا يعدل عن ظاهره إلا بقرينة قوية. والحذر من استجرار الآية أو الحديث لمعنى يريد الباحث حشر أدلة عليه متذرعًا باحتمالات ممكنة ولكن مع شيء من التكلف، والذي ينبغي أن ينزه كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ عن مثله.

ويجب في أثناء الدراسة مراعاة الضوابط التالية:

١- جمْعُ النصوص القرآنية أو الحديثية المتعلقة بالموضوع، ورَدُّ بعضها إلى بعض لتخرج بنتيجة صحيحة لا يعارضها شيء من تلك النصوص، بل يؤيدها.

٢- جمع القراءات الصحيحة المتعلقة بالموضوع إن وجدت، وكذلك روايات الحديث بألفاظها المختلفة.

٣- معرفة ما يتعلق بالموضوع من سبب نزول ونسخ، وهل يوجد شيء من ذلك أو لا؟

٤- محاولة فهم النص الواقع تحت الدراسة على وفق فهوم العرب إبان نزول الوحي، وذلك لتغير دلالات الألفاظ حسب مرور الوقت، ولهذا يقتضي الأمر الإلمام بمسائل تعين على فهم النص والتمكن من تقديم معنى على آخر، وهي كالآتي:

أ- إن النَّصَّ مُقَدَّمٌ على الظاهر، والظاهر مُقَدَّمٌ على المُؤَوَّل [1].

---

(١) **النَّصُّ:** هو ما دلَّ على المُرادِ منهُ بنفسِ صيغتِهِ من غيرِ توقُّفٍ على أمرٍ خارجيٍّ، وهو المقصودُ أصالةً من السِّياقِ، ويحتملُ التَّأويلَ. مثاله: حديثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّا نَرْكَبُ

=

ب- إن المنطوق مقدم على المفهوم، وإن المفاهيم بعضها مقدم على الآخر كذلك(١).

الْبَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ؟». فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**» (حديثٌ صحيحٌ رواه الإمام أحمد في المُسنَد، وأصحابُ السُّنن).

فالمقصودُ بالسِّياقِ أصالةً هو ماءُ البحرِ، فقولهُ ﷺ: « **هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**» نصٌّ في طُهوريَّتِهِ.

الظاهر: هو ما دلَّ على المُرادِ منهُ بنفسِ صيغَتِهِ من غيرِ توقُّفٍ على أمرٍ خارجيٍّ، وليسَ المُرادُ منه هو المقصودَ أصالَةً من السِّياقِ ويحتملُ التَّأويلَ.

مثاله: قوله تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[البقرة: ٢٧٥]، الآيةُ (ظاهرة) في حِلِّ كلِّ بيعٍ وحُرمَةِ كلِّ رِبَا دالةٍ على ذلكَ بنفسِ صيغَتِهَا من غيرِ توقُّفٍ على قرينةٍ، لكنَّ هذا اللَّفظُ غيرُ مقصودٍ أصالَةً بسياقِ الآيةِ، فإنَّها سِيقتْ لنفيِ المُماثَلَةِ بين البيعِ والرِّبا والرَّدِّ على من ادَّعى ذلكَ، حيثُ قال الله تعالى قبلَ ذلكَ:﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾.

التَّأويل في اصطلاحُ الأصوليينَ: صرفُ اللَّفظِ عن ظاهرِهِ بدليلٍ. والأصلُ وُجوبُ العملِ بالظَّاهِرِ أو النَّصِّ وعدمُ اعتِبارِ مظِنَّةِ التَّأويلِ؛ حتَّى يوجدَ ما يصرفُ ذلكَ إلى معنى آخرَ. وصِفَةُ هذا الصَّارفِ وُجوبُ كونِهِ دليلًا شرعيًّا، كنصٍّ، أو قياسٍ صحيحٍ، أو أصلٍ عامٍّ من أُصولِ التَّشريعِ، فإذَا لم يكُن دليلًا مُعتبرًا في الشَّرعِ كانَ هوًى يجبُ أن تُنزَّه عنهُ نصُوصُ الدِّينِ وَأدلَّتُهُ.

مثال للتَّأويلِ المُعتبر: تخصيصُ الظَّاهرِ في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ ﴾[البقرة: ٢٧٥]، عن بيُوعٍ، كبيعِ الغَرَرِ، وبيعِ المعدُومِ، وبيعِ الثَّمرِ قبلَ بُدُوِّ صلاحِهِ.

ومثالُ التَّأويلِ بالهوَى: تأويلُ صِفاتِ ربِّ العالمينَ ﷻ، كتأويلِ اليَدِ بالقُدرَةِ والنِّعمَةِ، وتأويلِ الاستِواءِ على العرشِ بالاستيلاءِ عليهِ، وتأويلِ نزولِه تعالَى كلَّ ليلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيَا بنُزولِ رحمتِهِ، فهذِهِ وأشبَاهُهَا من صُورِ التَّأويلِ تحكُّمٌ في الغيبِ وقولٌ على الله بغيرِ علمٍ، فهذا ليسَ من قبيلِ الأحكامِ الَّتي يسوغُ فيها النَّظرُ والاستِنباطُ، بلْ هوَ مِمَّا يجبُ الوُقوفُ فيه عندَ نصِّهِ إثباتًا مع اعتقادِ التَّنزيهِ للهِ ربِّ العالمِينَ عن مُشابَهَةِ الخلقِ.

(١) دلالة الألفاظ على المعاني إما أن تكون بمنطوق اللفظ أو بمفهومه، والمنطوق: ما دل عليه اللفظ في محل النطق. وليس كل لفظ يقال يراد به المنطوق، فقد يكون المفهوم أوْلَى من المنطوق، مثال ذلك: يقول رب العالمين في حق الوالدين: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ (الإسراء:٢٣)، فالمنطوق هنا هو أن يقول الولد لأبيه أو أمه: أف، والمفهوم: ما هو أعلى من الأف كالضرب والسبّ واللعن، وعليه فمن باب أوْلَى إن حرم الله الأدنى أن يحرم الأعلى.

ت- أن يخضع في تناوله للنص لقاعدة: العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، وأن العموم مقدم على الخصوص، والإطلاق مقدم على التقييد، والإفراد على الاشتراك، والتأصيل على الزيادة، والترتيب على التقديم والتأخير، والتأسيس على التأكيد، والبقاء على النسخ، والحقيقة الشرعية على العرفية، والعرفية على اللغوية.

ث- مراعاة سباق النص وسياقه ومقتضيات الحال المقترن بموضوع النص، وعدم اجتزاء النص عما قبله وما بعده.

ج- مراعاة قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ح- معرفة معاني الحروف، وعدم تفسير حرف أو حمله على معنى لا يقتضيه الوضع العربي.

خ- مراعاة أوجه الإعراب، وعدم القول بتوجيه لا يسانده إعراب صحيح أو قرينة أخرى.

د- أن المشترك اللفظي [1] يمكن حمله على واحد من معانيه دون نفي الآخر أو القطع بأن هذا الصواب وحده ما لم تكن هناك قرينة راجحة.

ذ- أخذ قواعد البلاغة وأساليب البيان بعين الاعتبار لأنها تعين على كشف دلالة النص.

٥- إظهار وجه الإعجاز: فإذا تم ذلك لم يبق على الباحث سوى أن يظهر الربط بين الحقيقة الشرعية والعلمية بأسلوب واضح مختصر.

٦- أن هناك أمورًا من قبيل المتشابه لا مجال لفهمها أو تناولها بالبحث.

---

(١) **المشترك اللفظي:** هوَ اللَّفظُ المستعملُ في معنيينِ أوْ أكثرَ بأوضاعٍ متعدِّدَةٍ. مثلُ: لفظِ (القُرءِ) فهو مشترَكٌ بين (الطُّهرِ والحيضِ) يُطلقُ على كلٍّ منهمَا، وكذا لفظُ (المولى) فهو مشترَكٌ بينَ (العبدِ والسَّيِّد)، ولفظُ (العينِ) مُشتركٌ بين (العين البَاصرَةِ، والجاسوسِ، والسِّلعةِ، وحقيقةِ الشيءِ، وعينِ الماءِ).

٧- عدم الاعتماد على الإسرائيليات أو الروايات الضعيفة.

٨- الاعتماد على المصادر المعتبرة في ذلك دون غيرها، كأمهات التفسير والحديث وكتب غريب القرآن والسنة، مع الإشارة إلى جهود الدراسات السابقة إن وجدت.

٩- الابتعاد عن تسفيه آراء السلف من علماء التفسير والحديث ورميهم بالجهل؛ لأن القرآن والسنة خطاب للبشرية في كل عصر، والكل يفهم منها بقدر ما يفتح الله عليه، وبحسب ما يبذله من جهد وما هو متوفر لديه من وسائل، ولن يحيط بفهم الوحي أهل عصر إلى قيام الساعة، فلا مجال للتسفيه والتجهيل، وإنما هي الاستفادة والتكميل والدعاء لمن تقدم.

بل الواجب اتباع فهم السلف رضي الله عنهم، وخصوصا الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنهم أدرى بذلك لِمَا شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولِمَا لهم من الفهم التام والعلم الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، وعبد الله بن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهم، فهُم العمدة والعدول بخبر الله تعالى، وعنهم أخذ التابعون، وعلى نهجهم ساروا، فمن عدَل عن تفسيرهم إلى ما يخالفه كان مخطئا، بل ومبتدعا، لأنهم كانوا أعلم بتفسير كتاب الله من غيرهم، وأورع، وأتقى.

١٠- ينبغي أن تحصر الدراسة فيما تمكن القدرة عليه، فالأفراد يمكن أن يقصروا بحوثهم فيما يتعلق بالاكتشافات فيما هو خاضع لتجاربهم المخبرية، ليصلوا من خلال ذلك إلى الحق، وللجامعات والمراكز والدول مجالات أكثر وأكبر.

١١- ينبغي أن يعلم الباحث في هذا المجال أن كلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم صِدقٌ وحَقّ، ولا يمكن بحال أن يخالف حقيقة علمية؛ لأن منزِّل القرآن هو الخالق العالم بأسرار الكائنات، ومعرفة ذلك تقتضي منا التريث وعدم تحميل النص ما لا يحتمله من أجل أن يوافق ما نظنه حقيقة، فإذا لم يتيسر ذلك بشكل واضح فعلينا أن نتوقف دون نفي أو إثبات، ونبحث عن موضوع آخر، والزمن كفيل بانكشاف الحق بعد ذلك.

١٢- على الباحث أن يتحرى الصدق والصواب وأن يخلص نيته لله في تبيين الحق للناس من أجل هدايتهم، وأن يعلم خطورة ما يتناوله، ويعبر عنه، فهو عندما يقول: «هذا المعنى هو الذي يشير إليه قوله تعالى» فهو يفسر كلام رب العالمين.

١٣- ينبغي أن يتصف الباحث بالصبر، مع توفر الكفاءة العلمية المكتسبة، حتى يميز الحق من الباطل، ويقبله ويلتزم بالموضوعية، ومعناها هنا: حصر المعلومات ودراستها من غير تحيز لفكرة أو رأي سابق، مع التقيد بالمنهج العلمي في التوثيق والاقتباس والإحالات.

١٤- تخطيط البحث بشكل يستوعب عرض أفكاره الرئيسية، مع وجود عنوان مناسب، وتقسيمه إلى: مقدمة وشرح وخاتمة، مع مراعاة الصياغة المناسبة لأبوابه وفصوله وتفريعاته بانسجام واتساق، ثم تَوَفّر السلامة اللغوية وتسلسل أفكار البحث، مع التقيد بعلامات الفصل والوصل وغير ذلك مما يسمى بعلامات الترقيم، وكذلك ملاحظة وضع التمهيد المناسب لقضايا البحث، ووجود خلاصة في نهايته، مع إبراز الإضافة العلمية، وتوفر الأمانة في الاقتباسات والتزام التوثيق الدقيق للنقول، والوفاء بما يلزم الباحث به نفسه من شروط وعلى العموم على الباحث أن يبذل ما في وسعه للإتيان بالأحسن ويحاول الإتقان لكل ما يتعلق ببحثه وفق العرف العلمي المتبع.

١٥ - لابد من إجراء الخطوات الحكيمة لإثبات البراهين العلمية التي تتفق مع منطق البحث دون تزيُّد ولا قصور. وهناك منزلقات وتجاوزات قد تسيء للبحث، كما أن هناك خطوات وشكليات قد لا يقيم لها بعض الباحثين اعتبارا فتقلل بالنتيجة من قيمة بحثه. لذلك ينبغي التأكيد هنا على ما يلي:

أ- تحديد المسألة التي يتكلم عنها الباحث في بداية بحثه بكل دقة وتميز ووضوح.

ب- تحرير المسألة بشكل يستقطب فرعياتها ويحول دون إقحام الدخيل عليها، أو تكرار أفكارها بدون مقتضي لذلك.

ج- إن كانت البرهنة العلمية تستلزم وجود وسائل إيضاح فلا يقصر في توفير ذلك.

د- حسن توليد المعاني، وسلامة الوصول إلى النتائج مع الانتقال المناسب إليها من خلال شرح متسلسل ومتفق مع مستوى البحث وحجم القضية التي يعاني الباحث في بيانها. وليتذكر الباحث دائما أن أفكار البحث هي بمثابة لبنات البناء فليعرف كل لبنة وليحكم وضعها في مكانها المناسب ضمن صرح منهاج بحثه.

هـ- عدم الركون إلى القناعات الشخصية وحديث النفس المتأثر بالعاطفة أو الهوى أو نحو ذلك من الخواطر العابرة أو المعارف الغابرة لضمان الموضوعية والبعد عن الهوى والتحيز والتعصب لما يتبناه من أفكار.

١٦- التزام مسار البحث ومجانبة الاستطرادات المشوشة والشطحات المخلة فحجم الكلام ينبغي أن يكون موائما للحاجة بعيدا عن الحشو الممقوت، والإضافات غير ذات الصلة. مع أنه بالإمكان توشية البحث بذلك تهميشًا إن كانت ذات صلة بالبحث.

القواعد التي يجب مراعاتها عند تفسير القرآن تفسيرًا علميًا:

أولًا: هذه النزعة التفسيرية محفوفة بالمخاطر صعبة المراس فيجب أن تؤخذ بالكثير من الحيطة والحذر، والتسلح بالعلوم الدينية والدنيوية معًا فلا يقتصر اهتمام أصحابها على ما برعوا فيه من علم دنيوي فقط؛ لأنهم أمام أخطرِ عملٍ يمارسه الإنسان ألا وهو بيانُ كتاب الله ﷻ.

ثانيًا: القرآن كتاب هداية إلى أحسن حال، وأعظم مآل، وقد نزل ليضع الخطوط العريضة لهذا الحال وذاك المآل، وليس من وظيفة القرآن التعرض لتفاصيل العلوم الدنيوية؛ فتلك متروكة للناس واجتهادهم.

لكننا نجد في القرآن لفتاتٍ علميةً تزرع في قلب المتشكك اليقين، وتزيد المؤمن إيمانًا على إيمانِهِ، فالقرآنُ منهجٌ إلهي لسعادة الفرد، وسلامة المجتمع فيه لفتات علميةٌ تخاطب العقل؛ لتثبت له أنه وحْيٌ يُوحَى من عند الله، لفتات كونية، وأخرى طبيعية،

وغيرها أنزلت على قلب المصطفى ﷺ لتكون معجزات خالدةً على مرِّ الزمان تثبِّت الإيمان بالله، وتزيد من يقين المؤمن بكتاب الله، وترفع دعائمَ بناءٍ شامخٍ في القلب والفكر على أن سيدنا محمدًا الأمي صدقًا وحقًّا رسول من عند الله ﷻ.

ثالثًا: حينما يشير القرآن إلى تلك الكونيات؛ فإنه يتحدث عنها بأسلوب لا يتعارض إطلاقًا مع أيِّ حقيقةٍ علميةٍ ثابتة، وهذا شيء بدهي؛ لأن القرآن قول الله ﷻ، والكون فعل الله ﷻ، ويستحيل أن يتعارض قول الله مع فعل الله.

رابعًا: يجب علينا أن ننظر إلى ما في القرآن على أنه حقائق فما وافق من الاكتشافات الحديثة على وجه اليقين قبلناه فمعنى هذا أننا لا نريد أن نثبت القرآن بالعلم، بل إن العلم هو الذي يجب أن يُثبَت، فالقرآن أصدقُ من أيِّ علمٍ من علومِ الدنيا، ومن أي علم في هذا العالم؛ لأن مكتشف هذا العلم أو مخترعه بشر، وقائل القرآن هو الله ﷻ.

خامسًا: لا يجوز لنا أن نَعْدِل عن حقيقة اللفظ القرآني، ونتجه إلى معنى مجازي إلا إذا كانت هناك قرائن قوية تحيل الأخذ بحقيقة اللفظ، وقد وقع كثيرٌ من العلماء في أخطاء جسيمة حينما عدلوا عن حقيقة اللفظ إلى معنى مجازي دون أي مبرر لذلك، وقد لوحظ على آيات القرآن أن التطابق بينها وبين العلوم الحديثة يكون أتم إذا ما روعيت هذه القاعدة بكل دقة.

سادسًا: الحقائق العلمية الثابتة التي لا تقبل النقد ولا التعديل هي المعتبرة في مجال التفسير العلمي للقرآن، أما النظريات التي تحت التجربة، والخاضعة للفحص، والتمحيص، فلا مكَانَ لَهَا في هذا المجال فالآيات القرآنيةُ حقائق ثابتة فلا تفسر إلا بحقائق ثابتة.

سابعًا: يجب مراعاة معاني المفردات على النحو الذي كانت مستعملة فيه أثناء نزول القرآن والحذر مما طرأ عليها من تطور بعد العهد النبوي.

ثامنًا: عدم التحرر من أي قاعدة نحوية؛ فالقرآن عربي نزل بلسان عربي جارٍ على ما أَلِفُوهُ من قواعد ودلالات.

تاسعًا: يجب مراعاة الأساليب البلاغية بصورها المتعددة، ودلالاتها المتنوعة.

عاشرًا: إن من خصائص الأسلوب القرآني أن عبارته حَمَّالة أي تحتمل في كثير من الأحيان أكثر من معنى صحيح، ولا يوجد تناقض بين كل هذه المعاني. وعلى ذلك فمن المرفوض علميًّا قصر اللفظ على معنى واحدٍ وردِّ بقية المعاني الصحيحة الأخرى دون مُرَجِّح.

الحادي عشر: يجب الجمع بين كل الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد من هذه الموضوعات الكونية فلا تُترَك آية في نفس الموضوع بل لا تُترَك آية تتصل بالموضوع ولو من بعيد؛ لأن كثيرًا من الآيات لا يمكن فهمُها إلا بفهم كل ما يتصل بهذه الآية.

الثاني عشر: يستحيل أن يتعارض شيء من كتاب الله تعالى مع شيء ثابت من ثوابت هذا الكون؛ لأن القرآن كتاب الله المسطور، والكون كتابه المنظور؛ فهما صادران من مشكاة واحدة.

الثالث عشر: يستحيل أن تتعارض آية من القرآن الكريم مع آية أخرى منه ومن ظن ذلك فمرجع ظنه إلى جهله وسوء فهمه.

هذه هي قواعد التفسير للعلوم الحديثة، فإذا ما فَسر مفسرٌ آيةً بما ظن أنه حقيقة علمية بينما الأمر ليس كذلك حيث ظهر له ما ينقض تفسيره هذا؛ فإن النقد حينئذ يجب أن يتوجه إلى التفسير لا إلى النص القرآني لأن النص القرآني ثابتٌ لا يتغير، وألفاظه حَمَّالة بوجوهٍ كثيرة؛ فلا نفرض عليه رأي باحث لم يعرف عن ذاته إلا النادر فضلًا عن جهله التام بأسرار هذا الكون العظيم، ومعاني القرآن الكريم.

ضوابط قبول التفسيرات المبنية على العلوم الكونية والتجريبية:

أولًا: أن تكون القضية المفسَّرُ بها صحيحةً في ذاتها، فإن كانت باطلة فلا يصحُّ أن يُحمل القرآن عليها:

وتظهر صحتها من ثلاثة وجوه:

- الوجه الأول: صحتها من جهة الوقوع.
- الوجه الثاني: دلالة اللغة عليها.
- الوجه الثالث: عدم مناقضتها للشرع.

أما الوجه الأول: فلا يمكن أن يدركه إلا المتخصص بتلك الواقعة من فلكي أو طبيب، أو جيولوجي، أو غيرهم؛ كلّ في تخصصه. وما ذلك إلا لأنَّ العالم بالتفسير، أو بالشريعة لم يدرس هذه العلوم ليدرك صحة الواقعة من خلافها، لذا فإنه يعتمد على ما يذكره العالم بتلك الواقعة ثقةً به في علمه.

أما الوجه الثاني والثالث: فإن المفسر أقدر فيهما من العالم بالواقعة الكونية أو التجريبية، ويمكنه معرفة صحة دلالة اللغة على تلك الواقعة، أو عدم مناقضتها للشرع، مثل من فسَّر الذرة في مثل قوله تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة: ٧ – ٨). بأنها الذرَّة الإلكترونية، وذلك غير معروف في لغة العرب، فلا يصح التفسير بها.

ثانيًا: أن لا تناقض قول السلف (الصحابة والتابعين وأتباعهم):

والمناقضة إنما تكون في ردِّ ما اتفقوا عليه، أو ردِّ جميع تفسيراتهم؛ لأنَّ من لوازم ذلك أن يكون في القرآن شيء من معانيه جهِله المسلمون منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم إلى وقت ظهورِ هذه القضية العلمية، واكتشافِ وجه ارتباطها بمعنى الآية، وهذا لازمٌ باطل بلا ريب، والقول بجهل السابقين بمعنى الآية مطلقًا يدل على وجود خلل في تنظير القضية. والصواب في ذلك: أن يُقبل ما قاله السلف، ويضاف إلى أقوالهم ما تحتمله الآية من المعاني الصحيحة التي يحتملها السياق.

ثالثًا: أن تحتمل الآية القضية المفسَّر بها:

إن الملاحظ أنَّ بعض من يتوجه إلى بيان القرآن بالمكتشفات المعاصرة يحرص على ربط بعض تلك المكتشَفات بالقرآن، ويقع الخلل عنده في الربط.

فقد تكون القضية التي ثبتت في المكتشفات صحيحة لا ريب فيها، ولكن الآية لها دلالة عند السلف لا توافق تلك القضية المكتشفة، فيأتي من يعتني بهذا الأسلوب، فيجعل الآية تدلُّ على ما ثبت في الاكتشاف المعاصر، وقد تكون الآية لا تدلُّ عليه.

رابعًا: أن لا يُقصر معنى الآية على هذا التفسير المعاصر:

هذا الضابط يتداخل مع الضابط الثاني، وهو أن لا يناقض قول السلف، وإنما أُفرِدَ للتنبيه على أنه قد يُفهم من عرض المكتشفات العلمية دون الأقوال الأخرى المحتملة؛ أن الآية لا تدلُّ إلا على هذا التفسير الحادث دون ما سواه، وعلى هذا فهو ضابطٌ احترازيٌّ يحسن بمن يتعرَّض للتفسير أن يتنبَّه له، وأن يذكر - ولو على سبيل الإجمال دون التفصيل - أن في الآية أقوالًا أخرى صحيحة، حتى يزول عند السامع احتمال أن التفسير المعاصر هو المراد دون غيره.

أهم معالم منهج تفسير النصوص الحديثية:

إن الأسس والقواعد الواجب مراعاتها في تفسير القرآن الكريم هي النبراس في تفسير النصوص عموما؛ ونجملها فيما يلي:

أولًا: يلزم معرفة ما يتعلق بالنص من سبب الورود وهل هو خاص أو عام أو مطلق أو مقيد أو منسوخ أو غير ذلك؟

ثانيًا: يلزم الإطلاع: هل ورد نص آخر يفسره؛ إذ تفسير النص من الوحي - والسنة من الوحي - أوْلى بالاعتبار؛ لذلك تُقدَّم وجوه التفسير الواردة في السنة على ما دونها.

ثالثًا: مراعاة العرف اللغوي في زمن التنزيل دون المعاني التي كثر تداولها فيما بعد، مهما بلغ انتشارها فيما بعد.

رابعًا: مراعاة قواعد الإعراب والبلاغة وأساليب البيان المقررة ليتم فهم أبعاد معاني النصوص.

خامسًا: ملاحظة سياق النص وسباقه ومقتضيات الحال وغير ذلك من القرائن[١].

سادسًا: التأكد من وجود إشارة واضحة على ما ندعي بأنه من معاني النص الذي نحن بصدد بيانه وتفسيره وتحديد الإشارة العلمية على نحو صحيح.

سابعًا: مراعاة أوليات الاعتبار في الاحتجاج بالمعاني، فالنص المُحْكم أوْلى من الظاهر، وظاهر النص أولى من المعنى المستقى بطريق التأويل، ومنطوق النص مقدم على مفهومه، كما أن بعض المفاهيم مقدم في الاعتبار على بعض؛ ولذلك يلزم عدم التسرع في ترجيح وجه تفسيري دون مرجح له شأنه.

ثامنًا: ملاحظة أسلوب النص وصياغته هل هو عام؟ وهل هو مطلق؟ وهل هو مجمل؟ وهل تشترك فيه معان عدة أو لا؟ وهل يحتوي دلالة على حقيقة علمية لا يمكن تعارضها مع العرف اللغوي الذي قد يقدم في الاعتبار أو هناك احتمال آخر.

تاسعًا: عند التأويل للنص لا بد أن يكون هناك ما يقتضي ذلك ويلزم عندئذ إعمال القواعد المعتبرة عند أئمة الأصول والتفسير من مثل قولهم:

- العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب.
- إعمال الكلام أولى من إهماله.
- لا عبرة بالظن غير الناشئ عن دليل.

عاشرًا: اعتماد المعاني المقررة للحروف التي تسمى حروف المعاني، كما قررها الأئمة الأعلام.

---

(١) تُفهم الكلمة أو الجملة مِن السباق (ما قبلها من الكلام) و السياق (ما حولها) و اللحاق (ما بعدها).

حادي عشر: البعد عن تأويل المتشابه وكذا الخوض في القضايا السمعية، مما لا يخضع للنشاط الذهني؛ بل يعتمد على النصوص الواردة بصددها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ثاني عشر: عدم الخوض في النصوص المتعلقة بالغيبيات التي استأثر الله بعلمها.

ثالث عشر: الحذر من الأخبار الإسرائيلية والآثار الواهية.

رابع عشر: التأدب مع علماء الأمة والحذر من تسفيه آرائهم، فكم عاب إنسانٌ آخر في اجتهاده فكان فيه العيب؛ إذ لم يحسن فهم مرامي الكلام أو مقتضيات الحال.

خامس عشر: يجب ألا يفارقنا اليقين بصدق قول رسول الله ﷺ لأنه وحي ووعد من الله ﷻ؛ ولذلك مهما رأينا وسمعنا في واقع حياتنا بأمور تتعلق بالكون فلا يسوغ أن نقدم ما قيل بصددها على ما ورد عن رسول الله ﷺ ولهذا يجب إعادة النظر عند وجود تعارض ظاهري بينهما؛ لأنه لا يمكن أن يصادم مضمون نص صحيح حقيقة ثابتة أبدًا، إذ إن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى بل بوحي من الله خالق الكون.

الإعجاز العلمي
بين الإفراط والتفريط

ضاعت وسطية الإعجاز العلمي، بالرغم من كل ما قدمه في زماننا الحاضر من مُعجزات مشرقة هَدَت العقول والقلوب إلى معرفة طريق ربها، فالذي يريد بناء الإعجاز العلمي على غير أساس سليم يريد تفسير كل شيء في القرآن والسنة بالعقل ونظريات العلم الحديث، ولا اعتبار عنده لأقوال السلف الصالح لأنها تعارض أفكاره، والذي يريد الهدم لكل بناء وإن كان على أساس سليم يرى أن الإعجاز العلمي بدعة ولا حجة له.

والناظر إلى مُجمل أبحاث الإعجاز العلمي يرى تفاوتًا ملحوظًا في قوة الطرح، فهناك مَن تمسك بقواعد العلوم الشرعية، فأبدع وأفاد، وهناك من تجاوز القواعد العلمية المتفق عليها من قبل علماء الشريعة وعلماء الإعجاز العلمي، فأفرط وقال على الله ﷻ وعلى رسوله ﷺ بغير علم.

ومن المؤسف أن هناك كتابات وأراء غير حيادية غضت طرفها عن الصحيح الجاد من أبحاث الإعجاز العلمي، فقامت بنسف جهد العاملين فى الإعجاز العلمي ببضع كلمات أطلقتها الألسن أو كتبتها الأقلام بدون دراسة جادة لقضية الإعجاز العلمي، فكان التفريط. وما بين أهل الإفراط والتفريط، وقف العاملون المخلصون في قضايا الإعجاز العلمي صامدون صمود أهل علم الحديث الذين لا يهنأ لهم بال إلا بإظهار الصحيح من السقيم، وبالرد المفحم على كل من أنكر الإعجاز العلمي لمجرد انه لا يفهم طبيعة هذا العلم.

بعض مظاهر الإفراط:

١- الخروج بمعنى النص عن مدلوله اللغوي الواضح إلى معاني مبالغ فيها لا يحتملها النص من أي وجه، بدعوى أن في النص استعارات مكنية ظهرت للباحث فقط ولم يفقهها السابقون الأولون، وذلك كتأويل النجم الثاقب بأنه الحيوان المنوي يثقب

البويضة، في قول الله تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾(الطارق: ١- ٦). مع أن سياق الآيات وأقوال كل المفسرين تقول بأنه أحد نجوم السماء الموصوفة بالطرق والثقب، ولا علاقة بين النجوم وذكر خلق الإنسان من الماء الدافق كما هو واضح من سياق الآيات.

٢- ومن صور الإفراط أيضا الافتتان بعلوم الغرب حتى ولو كانت نظريات في إطار التجريب، وكأن العلم الغربي حقٌّ لا مراء فيه، مما أدى إلى اعتقاد بعض المسلمين في هذه النظريات التي لم تثبت بَعدُ على أنها حقائق تصلح لتفسير الآيات أو الأحاديث.

ومن أمثلة ذلك المسارعة في تفسير الفتق بالانفجار في قوله تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾(الأنبياء: ٣٠)، لمحاولة التقريب بين الآية ونظرية الانفجار الكبير (Big bang)، مع أن كلمة الفتق من الناحية اللغوية لا تعنى أبدًا الانفجار ولم تستخدم كلمة الفتق في القرآن أو السنة بهذا المعنى، ثم أن كلمة الانفجار تؤدى إلى الفصل الكامل بين أجزاء الشيء الواحد مع الهدم والعشوائية في البناء.

ولو كانت كلمة الانفجار من الناحية العلمية صحيحة لذكرها القرآن بجلاء بدلا من كلمة الفتق حيث أن لفظة الانفجار لها مشتقات في القرآن كما في قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ﴾ (يس: ٣٤). ثم إننا إذا سألنا العاملين في دراسة نشأة الكون عن نظرية الانفجار الكبير لقالوا بمنتهى الوضوح أن ما وصل إليه العلم حتى الآن غيرُ كافٍ لتفسير كيفية إيجاد السماوات والأرض، وأن نظرية الانفجار الكبير لازلت في حاجة إلى كثير من الإصلاحات والتعديلات حتى تصل إلى فهمٍ قريب من الحقيقة.

وقد وردت هذه الحقائق في عدد مايو- يونيو ٢٠٠٩ من مجلة العلوم الأمريكية في مقالة بعنوان: النشاط الجديد في الكوسمولوجيا (علم الكون) لكاتبها د. باتريك بيتر

(Patrick peter)، مدير المعهد الوطني للأبحاث العلمية بفرنسا، وقد أبدع هذا العالم في هذه المقالة في التفريق بين ما هو قطعي الثبوت وما هو ظني في تحليل علمي دقيق لنظرية الانفجار الكبير.

ثم أخذ كاتب المقال في مناقشة الأمور التي مازالت ظنية في النظرية ومنها الحالة التي كان عليها الكون قبل الانفجار وهل نشأ من لا شيء أم أنه كان يسبقه كون آخر أسماه بالكون السابق للانفجار الأعظم.

كما أن كاتب المقال بدأ يميل إلى رفض كلمة الانفجار وطرح بدلًا منها سيناريو آخر واعتبره أكثر احتمالا وهو أن الكون الذي نعيش فيه نشأ كمنطقة متجانسة وصغيرة جدًّا في كون آخر فائق الكثافة، ثم أخذت هذه المنطقة الصغيرة في الانتفاخ والتوسع، مع العلم بأن د. باتريك بيتر لم يجزم بهذا النموذج الجديد بل فتح الباب لظهور نماذج أخرى ربما تكون أكثر علمًا ودقة.

إن وسطية منهج الإعجاز العلمي تُحتم علينا التوقف أمام هذه الظنيات، فلا ينبغي أبدا أن نأخذ الظني من أي نظرية ونقارنه بكتاب الله ﷻ، فالذي نؤمن به إيمانًا قاطعًا أن وصف القرآن هو أدق وصف لأنه من عند الله تعالى موجد هذا الكون؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤)، فلا يمكن تأويل حقائق القرآن إلا بعلم يقيني قطعي الثبوت وحتى يقترب العلم في ألفاظه من الألفاظ الدقيقة للقرآن.

٣- ومن صور الإفراط أيضًا القول بقدرة بعض العبادات على الشفاء الجزئي أو المطلق لكثير من الأمراض بدون وجود نَصٍّ من القرآن أو السنة يثبت العلاقة الصريحة بين تلك العبادة والشفاء من الأمراض، كما هو الحال في العسل مثلا الذي نص الله ﷻ على قدرته الشفائية بنص صريح لا يقبل الإنكار؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٦٨ - ٦٩).

بل إن بعض من أفرطوا في هذا الاتجاه استدلوا ببعض الأحاديث الضعيفة والمنكرة لإثبات أقوالهم، ومن ذلك حديث (صوموا تصحوا) في باب الصيام، وفي باب الصلاة استدلوا بحديث (قُمْ فَصَلِّ، فَإِنَّ فِي الصَّلَاةِ شِفَاءً) أو (الصلاة شفاء لكل داء) أو وصف قيام الليل بأنه (مَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ)، مع العلم بأن أغلب الروايات التي ذكرت أن قيام الليل مطردة للداء قد ضعفها أهل العلم، وحتى الرواية التي يصح سندها وهي (عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ وَتَكْفِيرٌ لِلسَّيِّئَاتِ وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ) قال عنها الألباني في كتاب الجامع الصغير وزيادته: «الحديث صحيح إلا جملة (مَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ) فهي ضعيفة».

ومبدأ الوسطية في الطرح يفرض علينا الجمع بين النصوص الصحيحة لنصل إلى القول الأمثل في علاقة أي عبادة بالنواحي الصحية، فلا مانع أبدًا من أن تكون هناك حِكَم صحية من وراء بعض العبادات، ولكن إظهارها يستلزم الدليل الصحيح والصريح.

ولا شك أن ربط العبادة بالأمور الصحية بلا دليل صريح، هو مسلك خطير لأنه يُخرج العبادة عن أسمى معانيها وهو الطاعة المطلقة لأمر الله ﷻ، إلى معنى دنيوي بَحْت وهو وصف هذه العبادات بالرياضات الروحية والجسدية، وفي هذا الفعل تقليل كبير من شأن العبادة.

فقد يدعى أحد الكفار بأنه يمارس نوع معين من الرياضات البدنية أو الروحية تحقق له نتائج صحية أفضل بكثير مما هو موجود في عبادات المسلمين، وهذا هو المشاهَد في العالم الغربي فنجد عندهم ارتفاع في نسبة الممارسين للرياضة ونسبة الأصحاء ونسبة كبار السن، وما حدث هذا إلا كنتيجة طبيعية للأخذ بالأسباب والسنن الربانية التي لا تحابى أحدًا.

وإذا ادعى النصراني أو اليهودي أو أحد أتباع الديانات الأخرى أن العبادة عندهم تريح أبدانهم وأرواحهم، فهل هذا دليل على صدق ديانتهم، أم دليل على أن

اطمئنان النفس والرياضات البدنية من الأمور التي تريح البدن؟ فهل يُعقَل أن نتخذ من الرياضات البدنية أو الروحية عبادات لكونها تحقق من الصحة ما لا تحققه بعض العبادات الإسلامية، فلا شك إذا في أن القول بأن العبادة رياضة وصحة أمر مبالغ فيه، وغير منصوص عليه في صريح القرآن والسنة.

٤- كذلك أيضا كان لإقحام الإعجاز العلمي في أمر الغيبيات، من الإفراط الذي شغل الناس عن رؤية آيات الله ﷻ في خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة، فصاروا يلهثون وراء فهم أحداث القيامة والجنة والنار من الناحية العلمية مع أنها من الغيبيات التي مهما تخيلناها فحقيقتها بخلاف ما تخيلنا، ووقعها على الأنفس بخلاف ما تحكى الألسن.

بعض مظاهر التفريط:

من مظاهر التفريط وكَرَدّ فعل قوى في مقابلة الإفراط المُشاهَد في قضايا الإعجاز العلمي، ظهر أصحاب القول بوجوب الابتعاد عن التفسير العلمي للقرآن الكريم، حتى أن بعضهم يعتبر ذلك بدعة، وذلك بزعم الحفاظ على القرآن والسنة من التأويلات الباطلة أو الاصطدام بنظريات علمية غير ثابتة، وأن القرآن كتاب هداية وإرشاد وليس بكتاب علم.

وهذا الرأي أغلب الظن أنه صدر من قلب غيور على القرآن والسنة، يخشى الخطأ في فهم النص الإسلامي، وهذا رأي ينبغي أن يوضع في الاعتبار فلا ينبغي أن يدخل ميدان الإعجاز العلمي للقرآن والسنة إلا العالم المؤهَّل، أما الجاهل الذي لم يصل إلى مستوى يؤهله إلى ذلك، فيجب أن يكُفَّ عما هو فيه من لهو التفكير في القرآن بالعقل دون النقل، ويعكف على مزيد من الدراسة ليصل إلى المستوى المطلوب.

وبالرغم من وجاهة رأى المعارضين للإعجاز العلمي، إلا أن المسألة ليست بهذه البساطة والسطحية، لأننا إذا تعمقنا في التفكير قليلًا لَوجدنا أن دعوة هؤلاء تخدم أعداء القرآن أكثر مما تخدم القرآن نفسه، لأن التطور العلمي الحديث أثبت للعالَم وجود تعارض بين ما جاء في كتب السابقين (التوراة والإنجيل، بعد أن وقع عليهما التحريف)

وبين حقائق العلم المكتشَفة حديثًا، ولكنه عجز عن ذلك أمام القرآن، مما جعل أهل الأديان القديمة يُناصبون الإعجاز العلمي للقرآن العداء.

فماذا فعل أعداء الإسلام لإخفاء نور العلم في القرآن الكريم، ولصرف أنظار الناس في عصر العلم الحالي عن الأخطاء العلمية في كتبهم، لقد أوعز هؤلاء الأعداء للمفكرين المسلمين بدعوى ظاهرها البراءة وفي باطنها الخداع، أن القرآن كتاب مقدس ولا يجب أن تتطاول عليه علوم البشر التي تخطئ في كثير من الأحوال، ولكل مجاله، وبذلك ضربوا عصفورين بحجر واحد.

وللأسف خُدِع بعض المفكرين المسلمين بهذه الدعوى الخبيثة، وساروا وراءها، بل قاموا يدعون إليها، ظنًا منهم أنهم يدافعون عن القرآن، وما علموا أنهم بذلك يخدمون أعداء القرآن.

وإذا كان القرآن الكريم ليس بكتاب علوم بمفهوم تلك التفاصيل العلمية الدقيقة التي يتعلمها الطالب في المجامع العلمية، إلا أنه أكثر وأهم من ذلك، لأنه يحمل إشارات نورانية إلى منتهى الحقائق العلمية الدالة على سنن الله الكونية في خلقه، وذلك من خلال ما تحمله الآيات القرآنية من إشارات علمية دقيقة إذا أحسنا تدبرها والبحث فيها واستنباط أسرارها العظيمة.

فالقرآن يحث الإنسان على النظر في الكون وتدبره، ولا يشل حركة العقل في تفكيره، أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وليس هناك دين من الأديان السابقة يكفل حق العقل في التدبر بمثل ما يكفله الإسلام.

وينبغي هنا أن نشير إلى أن للعلم المادي مراحل في الوصول إلى حقائق الأمور، أولها الفرضية ثم التجريب وقد تكون الفرضية أصعب من التجريب لعدم القدرة على المشاهدة كما هو الحال في علم الروح، فيسقط التجريب ولا يصح إلا الخبر عن العليم الخبير، والتجارب قد تنجح أو لا تنجح، وأحيانا يتم تعديل الفرضيات ثم تتم دراسات جديدة ويظل العلم في نظريات حتى تتضافر الأدلة على ثبوت نظرية معينة تؤكدها كل الشواهد بدرجة لا تخضع للشك، عند هذه المرحلة نصل إلى المقابلة الصحيحة بين

علوم القرآن والسنة وبين العلم المادي، فعلوم القرآن والسُنة لا تمر في ذكرها للخبر العلمي بمراحل كما يمر بها العلم المادي ولكن علوم القرآن والسنة تذكر من العلم المادي الحقيقة المطلقة التي لا خلاف حولها بل إن وصف القرآن والسنة للعلم المادي يفوق وصف البشر لأنه من لدن العليم الخبير ﷻ.

ومن ادعى أن كل المعارف العلمية ظنية فقد افترى فلابد لكل علم حقيقي من قواعد ثابتة يقوم عليها، اتفق على ثبوتها أهل التخصص وهناك أيضا أمور ظنية معلومة عند أهل التخصص هي محل بحث ونقاش، ولولا الحقائق لما قامت الحضارات فلا داعي لإضاعة الإعجاز العلمي بدعوى أن العلوم ظنية فهذا قول مجانب للصواب.

فالقرآن والسنة يمثلان سقفًا متجددًا لكل العلوم فكلما ارتقى العلم المادي خطوة في وصف العلوم اقترب من سقف القرآن والسنة حتى يصل العلم المادي في وقت من الأوقات إلى مقاربة سقف القرآن والسنة فتتجلى عندها آيات الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وحتى نصل إلى هذه الدرجة هناك مراحل عديدة من مقابلة العلوم الحديثة مع علوم القرآن والسنة.

وهذه يقوم بها مشكورين كثير من العاملين في مجال الإعجاز العلمي، وقد يخطؤوا في بعض المراحل حتى يهدى الله من يشاء إلى الحق الذي لا لبس فيه ولا غموض. ولولا هذه المحاولات الجادة مع بعض الأخطاء البسيطة وغير المتعمدة ما وصلنا يومًا إلى أي أعجاز علمي. ولكن ينبغي الالتزام بمنهج البحث العلمي الذي أسسه علماء الشريعة مع علماء الإعجاز العلمي في كيفية مقابلة النص الشرعي بالعلوم المختلفة.

وإذا كان الإفراط قد حدث من جانب بعض المحبين للإعجاز العلمي كظاهرة غير صحية دافعها العاطفة الزائدة، فذلك يستلزم التصدي لها بكل قوة من خلال الضوابط المعتمدة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة حتى لا يضيع الهدف الأسمى للإعجاز العلمي كأحد جوانب الهداية في القرآن والسنة. والأَوْلَى أن يدخل العلماء

المعترضون بكل علمهم في فحص المنشور من الإعجاز العلمي وتحقيقه بما يرضى الله لا أن يحجموا ويرفضوا.

وإذا ظن قراء الإعجاز العلمي أن هناك خطأً مَا في أي مقالة من مقالات الإعجاز العلمي، فينبغي أن يراسلوا صاحب المقالة ويبينوا له هذا الخطأ، فربما أقام الحجة على صحة قوله وخطّأ ظنهم، أو ألزموه الحجة الصحيحة فلا يعود ثانيةً إلى خطئه، وبذلك يخاف كُتّاب الإعجاز العلمي من النقد العلمي، وبهذا يفكرون ألف مرة قبل نشر أي كلمة لأنهم على علم بأن هناك من يراقب أقوالهم.

محاذيــر
في الإعجاز العلمي

١- أن يكتب في الإعجاز العلمي مَن ليست له قدم في العلم الشرعي، ومن أخطار ذلك أن تُجعل الأبحاث في العلوم التجريبية أصلًا يُحكَم به القرآن والسنة، فتُؤَوَّل الآيات والأحاديث لتتناسب مع هذه النظريات والفرضيات. ويؤدي إلى وقوع الانحراف في هذا الاتجاه الحرص الزائد على إثبات حديث القرآن والسنة عن كثير من القضايا التي ناقشها الباحثون التجريبيون، إن كتاب الله ﷻ وسُنّة رسوله ﷺ أعلى وأجلّ من أن يُجعلا عرضة لهذه العقول التي لم تتأصل في علوم الشريعة.

٢- عدم مراعاة مصطلحات اللغة والشريعة، ومحاولة تركيب ما ورد في البحوث التجريبية على ما ورد في القرآن، ومن الأمثلة على ذلك: أن القرآن يذكر عرشًا وكرسيًّا وقمرًا وشمسًا وكواكب ونجومًا وسموات سبع، ومن الأرض مثلهن ... إلخ. ومصطلحات العلم التجريبي المعاصر زادت على هذه، وذكرت لها تحديدات وتعريفات لا تُعرفُ في لغة القرآن ولا في لغة العرب، فحملوا ما جاء في القرآن عليها، وشطَّ بعضهم فتأوَّل ما في القرآن إلى ما لم يوافق ما عند الباحثين التجريبيين المعاصرين.

فبعضهم جعل السموات السبع هي الكواكب السبع السيارة، وجعل الكرسي المجرات التي بعد هذه المنظومة الشمسية، والعرش هو كل الكون. وآخر يجعل ما تراه من نجوم السماء التي أقسم الله بها وأخبر عن عبوديتها، وجعلها علامات؛ يجعل ما تراه مواقع النجوم، وإلا فالنجوم قد ماتت منذ فترة. إلى غير ذلك من التفسيرات الغريبة التي تجيء مرة باسم الإعجاز العلمي، ومرة باسم التفسير العلمي ... إلخ من المسمَّيات.

٣- قَصْر معنى الآيةِ أو الحديث على المعنى المأخوذ من البحوث التجريبية.

٤- بعض المعاصرين ممن اعتنوا بإبراز (الإعجاز العلمي) في كتاب الله ﷻ اعتمادهم على المأثور عن السلف قليلٌ جدًا، وجُلُّ اعتمادهم على كتب التفسير المتأخرة،

فتراهم ينسبون القول إلى القرطبي وأبي حيان والشوكاني على أنهم هم السلف. غير أن للعلماء اصطلاحًا خاصًّا في المراد بالسلف، وقد اختلفوا في تحديد الفترة الزمنية التي يقف عندها هذا المصطلح، والغالب في ذلك أنهم الصحابة والتابعون وأتباعهم ممن التزم الكتاب والسُّنَّة.

والسلف في مصطلح المفسرين لا يخرج عن هذه الطبقات الثلاث بدلالة أنك إذا رجعت إلى التفاسير التي جمعت مأثور السلف - كتفسير الطبري وابن أبي حاتم - تجدها تعتمد على ما نُقِل عن هذه الطبقات الثلاث، وتراها تقف عند طبقة أتباع التابعين. ومِن ثَمَّ، فإن مصطلح السلف عند الباحث هم أهل هذه الطبقات الثلاث.

٥- إن بعض المعتنين بالإعجاز دخلوا في هذا المجال بسبب ردود الفعل؛ إما بما رأوا من تنقص بعض الملحدين للمسلمين ودينهم، وإما بسبب ما يَرَونَه من الهجمة الشرسة على الإسلام والدعوى بأنه دين جامد يحارب العلم، ولقد كان لرَدَّةِ الفعل هذه أثرٌ في طريقة تفكيرهم وتناولهم لتفسير الآيات والأحاديث تفسيرًا يتناسب مع ما أوتُوه من علم بشري تجريبي أو كوني. ولقد بلغ الحدُّ ببعضهم إلى انتقاص علماء الشريعة الذين لا معرفة لهم بالإعجاز العلمي.

٦- يظهر على بعض من يعتنون بالإعجاز فرحُهم بما أوتوه من العلم، حتى إنَّ بعضهم ليخطِّئ كل من سبقه، ويزعم أنهم لم يعرفوا تفسير الآية ولم يأتوا في معناها بما يُقنِع، وهذا الأمر يظهر عند بعضهم صريحًا، ويظهر عند بعضهم بلازم قوله، كمن يزعم (أنَّ الآيات الكونية لا يمكن فهمها فهمًا صحيحًا في إطار اللغة وحدها)، ولازم هذا الكلام أن رسول الله ﷺ لم يفهم هذه الآيات، فضلًا عمن عاصره من الصحابة أو من جاء بعدهم، ولم تُفهم هذه الآيات حتى ظهرت هذه العلوم الكونية والتجريبية.

وكل من أتى على تفسير السالفين بالإبطال فليحذر، وليخش على نفسه أن يكون ممن فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ، وتنقَّصوا علم السالفين.

٧- التسرع في إثبات كون القرآن دلَّ على هذه المكتشفات المعاصرة، فينبغي التؤدة والتريُّث لأنه يُبنى على ذلك أمورٌ هي من الأهمية بمكان، ومنها:

أ- القول على الله بأنَّ هذه القضية المكتشفة أحد مراداته في كلامه، وإذا كان هذا القول بلا علم، فإنه من المحرمات التي ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(الأعراف: ٣٣).

ب- الاعتماد على ربط هذه القضية في إثبات صحة الرسالة، مع أن صحتها تثْبُت بما هو دون ذلك.

ج- أنَّ كثرة الاستدلال بهذه القضايا على صحة الرسالة تجعل الإسلام دينًا عقليًّا بحتًا، فالداخل فيه لا يمكن أن يقتنع به إلا بهذا الأسلوب، وذلك مخالف لطبيعة الإسلام، فكثيرٌ ممن ربطوا الإسلام بهذا العقل دون العقل الفطري وقعوا في الضلال؛ ككثير من المتكلمين والفلاسفة الذين عاشوا في ظل الإسلام؛ كابن سينا وابن رشد وغيرهم.

د- أنه مما لا يخفى على الباحثين في الأمور الكونية والتجريبية أن العلم البشري ناقص، وأنه يتطور مرة بعد مرة، ولا يأمَنون أنَّ ما يعدونه اليوم حقيقةً يكون غدًّا تاريخًا علميًّا لقضية أخرى، ولا يكون الفهم السابق هو الصواب. والدعوى بأنه لا يُفسَّر القرآن إلا بما ثبت يقينًا دعوى فقط، والواقع الذي يمارسه من يربط القرآن بالمكتشفات المعاصرة يخالفه، فما إن تظهر قضية يحس الباحث أن القرآن دلَّ عليها إلا وانصرف ذهنه من حيث لا يشعر إلى إثبات الربط بينها وبين القرآن.

فإن بعض من يستسلم لهذه الحقائق المذكورة في القرآن أو السُّنَّة، يأخذها بنظره العلمي التجريبي، ولا يدرك حقيقة الوحي، وأنَّ هذا القرآن من عند الله، فبينه وبين ذلك حجاب مستور، والله أعلم.

ومن ثمَّ، فإن العناية بالأمر الأول - وهو البحث التجريبي والنظر في هذا الكون والتدبر فيه - يجب أن تكون أكبر وأكثر من العناية بالأمر الثاني - وهو ما يسمى بالإعجاز العلمي - لوجهين:

الوجه الأول: أنه هو المجال الوحيد الذي سبقنا فيه أعداؤنا، ولا بد لنا من منافستهم في ذلك، والسعي للتقدم عليهم فيه.

الوجه الثاني: أنه عندما يقوم الباحثون المسلمون بتلك البحوث نضمن أنهم لن يصلوا إلى نتائج خاطئة مخالفة للكتاب والسُّنَّة، بل إنهم سوف يعيدون النظر في بعض النتائج المخالفة للكتاب والسُّنَّة التي وصل إليها البحث الغربي الكافر.

وإذا بقي همُّنا منصبًّا على العناية بما يسمى بالإعجاز العلمي لإثبات صحة هذا الدين لأولئك الذين لا يؤمنون إلا بالحقائق المادية، فإننا سنبقى عالة على الغرب ننتظر منه كل جديد في العلوم، ثمَّ نبحث ما يوافقه في شرعنا، ولا يخفاك ما دخل علينا من هذه العلوم مما هو مخالف لشرعنا، وما ذاك إلا بسبب أنَّ موقفنا نحن المسلمين موقف التلميذ الضعيف المتلقي الذي يشعر أنه لا شيء عنده يمكن أن يقدمه. والبحث العلمي بلا قوة تحميه لا يمكن أن ينفعل في الواقع، لذا لا بدَّ من أن يواكب العلم قوةٌ تكون في الأمة كي تدعم هذا العلم وتحافظ عليه، وإلا صار ما تراه من هجرة العلماءِ عن ديار المسلمين إلى ديار الغرب الكافرة.

إن موضوع الإعجاز العلمي ينبغي تصحيح مساره، ووضعه في مكانه الطبيعي دون تزيُّدٍ وتضخيم كما هو الحاصل اليوم، حتى لقد جعله بعضهم الطريق الوحيد لدعوة الكفار، وأنَّى له ذلك؟ لقد أسلم كثير منهم في هذا العصر - ولا زالوا يسلمون بما يعرفه كثير ممن خبر إسلامهم - ولم يكن إسلامهم بسبب ما ورد في القرآن من حقائق وافقها البحث التجريبي. نعم لقد كان له أثر في إسلام بعض الكفار، لكنهم أقل بكثير ممن يسلم بسبب الاقتناع بالإسلام، وبما فيه مما يلائم فطرة البشر.